رواية

# الكتب

## قصي الشيخ عسكر

Scanned with CamScanner

المكتب

Scanned with CamScanner

جميع الحقوق محفوظة لدار الحصاد

الطبعة الاولى آيلول ١٩٨٩

- ١٠٠٠ -

مطبعة ابن حيان

صمم الغلاف الفنان : احمد معلا

Scanned with CamScanner

# المكتب

رواية

قصيّ الشيخ عسكر

Scanned with CamScanner

# القسم الأول



Scanned with CamScanner

## ـ ١ ـ

معدله العام دون شروط الجامعة .

علق سلمان العلي على كلام زوجته ، موجهاً سؤاله لكريم :

ـ ماذا تنوي أن تفعل ؟

لم يكن ينتظر الوقت ليفكر . قال على الفور :

ـ أعمل في محل أهلي . وظيفة الحكومة لا تنفع . أشتغل مدة وأجمع مالا ، ثم أرحل لاكمل دراستي .

قالت خديجة ، وقد عادت علامات الفرح ترتسم على وجنتيها:

ـ أنت وحيد .. لن يأخذوك لخدمة العلم .

قال الزوج كأنه يطمئن امرأته :

ـ لو كنا نسكن البصرة لوجد عملا في شركة أجنبية .

ثم عقب بعد فترة صمت :

ـ سأحاول أن أتصل بمعارفي عسى ولعل !

كانوا يجترون الكلام عن الوظيفة كل يوم ، ها هي أخته وزوجها يتركان له الخيار فلا يتعجلانه اذ لم يمض على نجاحه سوى شهرين ، وهو متلهف للالتحاق بوظيفة أهلية توفر له خلال سنين مبلغا ، ثم يترك شغله دونما قيد ، ليحقق طموحه .

ومضت فترة صمت ، فانصرفت خديجة الى أعمال البيت ، وغادر سلمان الدار لبعض أشغاله ، أما هو فقد توجه الى مقهى تشرف واجهته الزجاجية على شارع الرشيد ، وراح يحتسي الشاي بهدوء !



Scanned with CamScanner

انه الآن يتذكر بعض ماضيه، هذه اللحظة يشعر بلذة انعكاس الزمن • ولد وحيد لم يكن أمرا عابرا ، لا سيما وقد رزقت بـه والدته بعد نذور وبركات ودعاء ، وزيارة لمراقد الأئمة •

عادة يكون الولد الوحيد مدللا بين أخواته • يحملنه أينما ذهبن ، تتناقله الايدي والاحضان • كن فرحات بـه ، فالفتيات يتجرّدن من غيرة يحس بها الاولاد تجاه بعضهم بعضاً •

ورغم أن ذكرياته توزعت بين أخواته الثلاث ، فقد كان يفضل ملازمة خديجة على الأخريين ••• وكم ظل يبكي ، وأقفر البيت بعينيه عندما انتقلت الى بيت سلمان العلي الموظف في مصلحـة جباية الضرائب •

وأدركت الأم رغبته من تصرفه ، فعهدت به الى أخته خديجة قبل وفاتها ، وكانت وصيتها له •• أن تصبح أمه حتى يتم الثانوية• هكذا بدأت حياته في بيت أخته •

والكيلا يشعر بحرج لم يتدخل الزوج في محاسبته اذا مـا تصرف أي تصرف مرفوض • ظل الحساب بينه وبين خديجـة ، فلا تختلط شخصية سلمان الناصح بشخصية المحاسب •

وها هي أخته لم تتغير ، ربما أحس أن أختيه انصرفتا عنـه لعوالمهما بعد أن تزوجتا • أما خديجة فقد ظلت تمثل صورة أمه بكل ملامحها ، وكل ما أفرزته شخصية الراحلة ، فكانت الام الانموذج الذي تحتذيه خديجة في حياتها •

كثيرا ما منعته من الخروج واللعب في الشارع • تفكيرهـا



Scanned with CamScanner

يقتصر أن تحفظه من مآسي الطريق ، وأخطار العجلات ، وتمنعه من الاختلاط بأبناء الشارع حتى تؤدي أمانة الام فيشب ، وينهي الدراسة الثانوية ، عندها تكون قد أنهت مهمتهـا ، وأراحت الراحلة في فردوسها •

أحيانا يجد أخته تغلق عليه الباب ، وتشتري له لعب الاطفال، وكل ما يراه ويسمع به ، الدوامة ، الورق ، « الدعبل » ، لكنه كان يعاف اللعب بها وحده ، وربما يبكي ، فتأخذه في حضنها •••

الاطفال لا خوف عليهم • في كل بيت أربعة أو خمسة • أنت الوحيد عندنا • أترضى أن تغضب والدتك في القبر ؟ دع الرحمة تنزل عليها • اسمعهم ! أحدهم يسب الآخر • لا خوف عليهم من أي خطر ، فأمهاتهم من رقع مختلفة • الشر لا يصيب الشر • أنت ذخر الاهل • أتقبل أن يشاجرك أحد فيسب أمك ؟

ويصمت الصبي كأنه اقتنع بكلام أخته ، وكانت العبارات تتكرر على مسامعه عندما يبدي محاولة للخروج •

ووجد وسيلة أنسته حرية الشارع ، واللعب الصاخب • بدأ يقرأ قصص الاطفال فينسى الوقت يمر ، ولم يسمع صراخ المزدحمين في الزقاق ، فقطعت القصص علاقته بما حوله ، وارتاحت أخته لشغفه بالقراءة ، فتركته يشتري ما يريـد من قصص ، وأحيانا تقتطع من مصروف البيت وتشتري له القصص ، فتكونت عنده في المنزل مكتبة لا زال يحتفظ بها كسلسلة « جدتي حكت لي » و « السندباد » و « دار المعارف » •

وأثاره حين كبر أن وجد أخته تتبع الاسلوب ذاته مع ابنهـا



Scanned with CamScanner

الصغير « ماجد » ، فقليلا ما تسمح له بالخروج . هكذا علمتها الام ، فالمرأة المحترمة لا تترك أبناءها للغبار والسباب والشتيمة، وخير لها أن تقفل الابواب بوجه الطفل ، وتتحمل صداعه ، وقد رأى علامات الامتعاض بعد أية زيارة لخديجة من أختيها حيث ينتشر أولاد ليلى في الشارع ، فتطلق الكبيرة حسرة طويلة ، وتهمس لنفسها بجملتها المعهودة :

ـ آه لو كانت المرحومة حية فترى !

أما اذا سمحت لصغيرها أن يخرج فمع خاله أفضل ، يشيعهما دعاء حين يخرجان وتعويذة من شر كامن .

كان يفضل الحرية المكبوتة في بيت خديجة على منزل سلوى أخته التي تكبره بثلاثة أعوام ، وفضلت العيش بعد وفاة الام في بيت الوسطى حتى تزوجت . لايشك في أنها تحررت من قيود كثيرة فيما لو عاشت معه ، فهناك الشارع مفتوح أمامه ، لكن لا يحس بشعور الامومة الا عندما يكون جنب خديجة .

لم يذكر أنه في بيت آخر طلب مالا أو تقدم أحد ليعرض عليه ما يحب في الأكل والملبس . أخته الكبرى تسأله قبل زوجها عما يحب أن يأكله في الغداء ، كأن وجوده في البيت هو الاساس .

وهكذا فضل البيت الاول ، وقلل زياراته لليلى ، وراح يلتذذ بالجلوس جنب خديجة ، وهي تطهو الطعام ، ويقرأ قصصا عن « أميرة الواحة » و « الاقزام السبعة » فاذا ما مر بمشهد مثير رأى دمعتين ساخنتين تنزلان من عيني أخته التي أرجعت السبب الى تقشير البصل !



Scanned with CamScanner

عالمان زرعا في نفسه حب القراءة ، البيت ، والمدرسة ...

مرة أقبل معلم اللغة العربية يحمل مجموعة من القصص ، وزعها على الطلاب • بدأوا يقرأون بصوت منخفض • انسجم مع القصة فأكملها قبل صوت الجرس• الامير الظالم تحول الى كلب، ثم ذئب ، ثم عجل بحر ، وأخيرا حمامة وقعت بيد صياد • حكى القصة للطلاب ، فشجعه الاستاذ ، واختاره ليقرأ بصوت مرتفع قصة كل أسبوع من مكتبة المدرسة •

وكان الاكتشاف عظيما ينسيه الشارع ولعب الاطفال •

ثم انصرف بقراءاته في المرحلة الثانوية الى الكتب الادبية ، وافضل الكتب المترجمة ، فارتسمت في فكره صورة مشرقة لأوربا وما تعنيه بمجتمعاتها المتطورة ... تغلغلت في ذاته القارة الخضراء ، صورة الكتاب الذي قرأه ، وتمثل له المثلث الذهبي في عالم الخصب • الطعام أولا ، الجنس ثانياً ، المطالعة • انها ديمومة الحياة ، والحياة في مجتمع ضيق بعاداته وتقاليده تفقده أحد أضلاع المثلث الذي ارتسم في مخيلته •

مرة يسأل مدرس الدين :

ـ التفسخ في أوربا ظاهرة الابتعاد عن الدين ؟

لم يزد على أن قدم الورقة بيضاء • ظن الاستاذ أن الطالب عجز عن الاجابة • الاولى أن يقدم الورقة بصمت ولا ينقض نظرية الاستاذ • مع ذلك لم ينس الناس المحيطين به وان نفر منهم أحيانا ، فقد تعاطف مع النظرة المنادية بالاشتراكية في بلدان



Scanned with CamScanner

العالم الثالث . لا يمكن أن نكون ديمقراطيين في هذه المجتمعات، فنحن نسيء الى الديمقراطية ، وتتصرف بفوضى . ما كان يؤمن بأي فكر في بلد متخلف الا بفكر اشتراكي ، يضبط فيه المجتمع بالضغط والالتزام ، أما المجتمعات العظيمة بنظره : الانكليز ، الامريكان ، أوربا الشمالية ، مع اثارتهم حقده لاستنزافهم ما دونهم ، فهي مجتمعات عظيمة ، تتعامل بصدق داخل اطارها الخاص ، وتعرف كيف تتصرف بالحرية دون أن تهدم هيكلها .

كانت أوربا الغربية المثال الاول المرسوم أمامه ، والمثال الثاني المنظومة الاشتراكية ، لكن ما دمنا لا نعرف كيف تتصرف كغرب أوربا ، فعلينا أن نتعلم من شرقها لنبني حضارة جديدة تقوم على هيكل العشيرة والتخلف !

شدته الافكار والمناقشات ، كما شدت بعض الطلبة ، وظل الحديث يتخذ طابع التمثل بما وراء الحدود من خصب ومثال لحياة أفضل ، في وقت انتشرت كتب رأس المال ، وقصص مكسيم غوركي ، وفكتور هيجو ، وكتاب دارون ، وروايات أميل زولا ، والبرتوموراڤيا ، وازدحمت بها مكتبات بغداد .

شعر كريم عندما يقف خلف عمود الرواق في الاستراحة ، أن عينين تراقبانه باهتمام . كان الطالب في صف آخر . جمعهما بعد ذلك تعارف ، ثم نقاش اتفقت على معظمه الآراء ، وتشعب في مواضيع مختلفة من الفن الى السياسة الى فساتين السهرات ، الى أرقام سيارات الامن المعروفة ، وأشكال ضباط الامن في مركز العاصمة .



Scanned with CamScanner

بالتأكيد يعد لقاء كريم بصالح الاسمر ذي الملامح القريبة من لون أهل البحرين ، والذي يرتدي البنطلون الداكن طول السنة نقلة في حياته ، وربما كانت مرحلة حاسمة كموت والده ووالدته، وانتقاله الى بيت أخته .

اذا أراد أن يستعرض أي كتاب يتصفح فصوله ، فالاول رحيل الاب والام ، والثاني انتقاله الى بيت خديجة ، والفصل الثالث ، وان لم يكن يدري بعد ، هو العالم الذي عرفه في صالح وأصدقائه .

تعرف به السنة الخامسة . كان يجد حرجاً في دعوة أحد الى بيت خديجة . انه متيقن أن سلمان لا يبدي أي رفض، وأخته ترحب بأصدقائه ، لكن ليس هذا بيته الخاص ، فالبيت أم وأب، وما جاوزه مجرد تقليد يختلف عن الاصل .

كانت لقاءاته بصالح أكثر ما تكون في مقهى ، أو في بيت صديقه ، ولعل صالحا عرف سر الدعوات القليلة التي يوجهها إليه كريم ، ففهم المراد ، ولم تلح عليه أية علامة ضجر إذا ما اقتصر كلام كريم على دعوة قصيرة خالية من حرارة وخارجة عن لسان فقط .

بعد السادسة خرجا من سينما النصر . شاهدا فلما عن الحرب الامريكية الفيتنامية وكالعادة ظلت مثل هذه الافلام تثير نقاشا حالما يخرج المشاهدون . قال صالح :

ـ أتعرف أن في الترجمة خطأ ؟

ـ الترجمة عن الانكليزية .



Scanned with CamScanner

ـ الفيتكونج تعني العصابات .

ـ نحن نترجمها عن أعلام الغرب .

ولم يطل الحديث ، فبرودة الهواء ، وشحوب أضوية الشارع في هالة البخار صرفتهما عن الموضوع . قال كريم :

ـ ألن تأتي معي الى الدار ؟

كأنما أحس صالح بما أوجزه صديقه ، فأصر وهو يمسكه من كتفه :

ـ سيكون بيتنا أكثر ملاءمة للظروف ..

وضمتهما غرفة الاستقبال . اعتاد كريم أن يتخذ موقعه قرب المنضدة الخشبية الصغيرة . بعد برهة أطلت والدة صالح من الباب الداخلي ، سلمت سلاما موجزا . سألته عن أهله ، أحواله ، وكلمات الترحاب ..

كانت امرأة في الخمسين . بدينة سمراء ، فاق سمار بشرتها لون ولدها ، انسدلت خصلات من الشيب على جبينها المجعد ، وأحاطت وجهها بفوطة سوداء ، لفت على رقبتها وصدرها ، بينما غطى ثوبها الاسود كعبيها . لم يطل سلامها ، اذ سرعان ماردت الباب ، وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها .

حسب تفكير كريم فان صالح يقصد التقارب بعلاقة أوسع . ان والدته لا تفتح الباب على صديق ابنها الا اذا كانا بمنزلة الاخوين . هذا يعني أن صالحا أزال الحدود في علاقتهما ، وعرفت والدته صديقا آخر في قائمة اصدقائه الذين اذا دخلوا

البيت تطل من الباب فتحييهم ، وربما في يوم قادم تجلس معه، وتحدثه بعبارات أطول .

ـ والدتك ترتدي الاسود ؟

ـ في حداد منذ وفاة والدها . المرأة في فستنـام تحارب ، ونساؤنا يغرقن في العاطفة .

سمعا على الباب طرقات خفيفة ، فسارع صالح ليحضن وعاء الطعام . عقب على العشاء :

ـ عادتي أن أقدم ما هو موجود ، لكن الاهل يتفننون .

وحين انتهيا من الطعام ، التفت كريم الى ساعته . قال باعتذار :

ـ لم أخبر أختي أني أتأخر !

ابتسم صالح كأنه يُسر الى صديقه شيئا جديدا ، ليعرف مدى استيعابه له . قال بهدوء :

ـ عندي كتاب أتحب أن تقرأه ؟

ـ لن أمانع .

ـ كتاب جديد . الشرط الوحيد لاعارته أن يرجع بعد يومين .

دخل صالح الدار . ظلت عينا كريم تطوفان في المناظر المعلقة على الحائط التي اعتاد رؤيتها كل زيارة ، صورة رجل نحيف ، طويل الرقبة ، كث الشارب ، ينظر الى أمام نظرة ثاقبة ، عرف في البدء أنه رب الاسرة . صور لصقها على ما يبدو صالح مقتطعة من « المجلة » الالمانية الشرقية . مناظر لرسامين محليين ، صورتان



Scanned with CamScanner

مؤطرتان للكعبة ، ومرقد الامام علي ، كانتا مـن ابتكار ذاكرة العجوزين .

قطع تأمله في هذه النماذج المتباينة قدوم صالح ، وقد سلمه كتابا مغلفا بكيس داكن . اتضح أنه مستطيل . قال :

ـ دسه في جيب سترتك الداخلي .

ثم أكد عليه :

ـ لا تره لاي كان .

أوصل الاسمر ضيفه الى الباب ، وهم أن يشيعه الى نهاية الزقاق ، غير أن كريما لم يفكـر أن يتعب صديقـه ، فاكتفى بمصاحبته عند الباب ، ورفع صوته محييا العجوز ، قاصـدا منزل أخته .

## ـ ٢ ـ

دخل المنزل الساعة العاشرة ، ما كاد ينتهي من خلع ملابسه حتى أقبلت أخته كعادتها تلقي عليه أسئلة يضجر منها ، فيخنق تأففه باجابات مقتضبة .

ـ أتعشيت في السوق أم في بيت صديقك صالح الـذي حدثتني عنه ؟

كان يحرك رأسه بالايجاب أو النفي ويغلف ضجره بابتسامة واسعة ، بينما واصلت أخته :

ـ راع نفسك في الاكل خارج البيت ، فربما لا تهتم البيوت والمطاعم بنظافة الاكل مثلنا !



Scanned with CamScanner

خرجت لتتركه وحده . أحس بصفاء ذهن بعد تحقيق قصير. أخرج الكتاب ، وبدأ يقرأ عبارات سمعها من اذاعات مختلفة ، ومصطلحات بعضها عرفه وآخر مر به ، ولم يجد الا القليل الذي يخالف رأيه وتعاطفه . لقد ورث عن أخته وزوجها ، ووالديه قبل الرحيل كرها لحكومات أسقطت العهد الجمهوري الاول . كان أهله يتعاطفون مع اليسار ، فالشيوعيون ، والوطنيون وقفوا جنب عبد الكريم قاسم في محنة رمضان ، وظلت صورة الزعيم في عيني والديه رمزا لحامل سيف الحق على الظلم ، وكانت أخته مثال أمه لا في تفكيرها فحسب بل تصرفاتها. أما زوج أخته وان لم يكن يتحدث بالسياسة إلا قليلا ، فأمنيته أن يبصر آل عارف معلقين بالساحات التي علق فيها أنصار الحكم الملكي .

ما سمعه من أهله ولد عنده بالفطرة كره الحكومة ، وها هو الآن يكره النظام لا عن عاطفة . قد لا يكفي شعور الناس للحكم على شيء بالاخفاق ، والكره بتقديره لا بد أن تجسّده نظرة موضوعية قادرة على الثبات .

اليوم التالي التقى بصالح. انزويا في ركن من ساحة المدرسة. قال الاسمر :

— ما تنوي فعله بعد النجاح ؟

— تعرف أني في بيت أختي . حين أتخرج لا أطيق البقاء أربع سنوات .

— يعني أنك ضجر .

— أختي لا تبخل علي وزوجها يعاملني كأخ .



Scanned with CamScanner

ـ مجرد شعور نفسي • ما دمنا نعيش في مجتمع اقطاع ورأسمال ، فالعلاقات فيها تكلّف وتمثيل •

تضايق كريم بعض الشيء ، فالتلويح يمس أخته وسلمان العلي • قال :

ـ أحاول أن أعمل في محل أو مؤسسة أهلية سنتين وقد تزيد • أجمع نقودا ثم أترك العمل الى الخارج •

ـ أتفق معك في بعض الامور •

ـ على الاقل أشعر أني انسان في أوربا •

ـ أوربا الشرقية فقط •

ـ مهما تكن أوربا فهي أفضل منا بعبثها والتزامها ، فلا نحن في مجتمع اسلامي ، ولسنا شيوعيين أو رأسماليين • انه مجتمع يدعو الى الغثيان •

ـ أنا متأكد أننا رأسماليون واقطاع يقيني أنك جنبي الآن !

ـ المجتمع الرأسمالي متطور • الشيوعي سيصل إلى القمر ، أما نحن فنجمع السيئات ونشكل منها مجتمعا خاصا بنا •

ضحك صالح وعقب :

ـ يتغير •

ـ عندئذ يكون المهدي قد خرج وأنا عدت من أوربا •

ـ ما دامت تراودك رغبة في السفر فلدي اقتراح •

ازدحم الطلاب للدخول في الصفوف ، فأجلا الحديث لفرصة الخروج ، دخل كريم الصف • دقائق صمت الطلاب ونهضوا ، فدلف مدرّس حصة الدين • كان يميل الى النحافة ، مستطيل



Scanned with CamScanner

الرأس ، انحسر الشعر عن مقدمته ، وبان ساعداه قصيرين دونما تناسق مع طول اليدين • نظر الى طالب يتجهم ووبخه ، ولم يزل الطلاب واقفين • أنت لم تقم باحترام • اذا كنت تستهزيء بالاستاذ فلدينا أسلوب • نحن تحترمكم • أنتم كبار • اذا كنتم تحنون الى أيام الطفولة فهذا بحث آخر •

أشار الى الطلاب بالجلوس • واصل وعيناه تتفرسان في الطالب نفسه :

ـ المصيبة أنكم تلتحقون بعد شهور بالجامعة ، ثم تسمّون أساتذة وقد تدرّسون معي هنا !

حاول الطالب أن يعتذر ، لكون ما فعله غير مقصود ، لكن الاستاذ انصرف الى رزمة أوراق بيده ، واستل منها رزمة • توجه الى كريم بنظراته ، قال باستهزاء :

ـ أنت مسلم ؟

عقب طالب اعتاد المقاطعة ، ولم تثنه اهانات الاساتذة :

ـ بالجنسية فقط •

لوح الاستاذ بالورقة البيضاء • قال كريم خجلا :

ـ معذرة ، لم يكن وضعي النفسي مناسبا •

ـ عذرك عذر أبي نواس •

تجنب الصدام مع الاستاذ ، لا سيما درس الدين غير مقرر في الامتحان الوزاري ، وختم الاستاذ عبارته بسؤال :

ـ أتعرف ماذا أفعل حين تصبح زاميلا لي ؟

لاذ كريم بالصمت شأن أي طالب لحظة احراج • قال الطالب



Scanned with CamScanner

المقاطع بسفاهة :

ـ تقدم استقالتك ؟

ـ أرحل من آسيا !

انقضى نصف الدرس بهذه الصورة • النصف الباقي بمناقشة حلول الطلاب ، ثم أعلن الجرس نهاية يوم دراسي •

في طريق العودة كان صالح يرافق كريم • قال الاخير يستطلع ما فكر به زميله في الاستراحة :

ـ لم تخبرني اقتراحك ؟

ـ تستطيع أن تستفيد من بعثات اتحاد الطلبة •

كان يعرف مقدما بعض الاخطار اذ يقدم على خطوته ، صور الارهاب بعد رمضان أعطت العبرة لكثير من المتعاطفين، وأحرقت مثلما تقول النساء الاخضر واليابس ، لكن عهد عارف بتنازلاته الديمقراطية ، وليونته تجاه المعارضة دفعه كما دفع الكثيرين لنسيان ارهاب رمضان ، ثم لماذا يفكر وهو يغادر ؟ ما يجمعه من المال ، وما يُنفق عليه من تكاليف البعثة ، كاف لان يرى أوربا بكاملها •

قال باهتمام :

ـ ليس هناك ما يمنع •

ـ تذهب معي الى الدار • تتغدى معا ونكتب المطلوب •

ـ تأخري يثير قلق أختي •

ـ ليكن عصرا • أنتظرك الساعة الرابعة •

حين دخل المنزل لفحت وجهه رائحة السمك المقلي ،



Scanned with CamScanner

فالاسماك فقط تجاهر برائحتها من بعد ولا تخشى افتضاح السر • انتابه قلق شفاف سرعان ما زال ، فهو يفكر بالعوالم الجديدة التي تنتظره • أحضرت أخته الصينية • قالت :

ـ ماجد أصر على أن يأكل معك •

ـ بابا يتأخر •

جلس الصغير جنب كريم ، وتهيأت أمه لتسل له العظام !

ابتسم ليظهر للصغير وأخته أنه منسجم معهما ، كان أحوج ما يكون الى قضم اللقمة ، والتفكر في نماذج يبتعد عنها • الجدران • الزقاق الضيق الذي يتحول الى نهر عند المطر • السيارات الخشبية القديمة • مدرس الدين وما يثيره في نفسه من حقد • كان يسأل اتختفي هذه الصور عن عينيه بعد سنين ؟ ربما ••• وربما قبل ، ولعل الزمان يطول فيظل المكان منطبعاً في عينيه ، لا تذوب رؤاه وأشباحه !

انتشله من موج أحلامه صوت أخته :

ـ عظم مع اللقمة !

نظر الى عظم غليظ ، فاته أن ينتبه له ، وأكدت أخته :

ـ خذ حذرك من عظام السمك •

لم يكن السمك يعني بالنسبة اليه الا الرائحة القوية التي تعلن عن هوية صاحبها ، أما العظام فلا تخص السمك وحده • قال ماجد :

ـ اذا مت من يصحبني الى مدينة الالعاب ؟

قالت تزجر ابنها :



Scanned with CamScanner

ـ كفى الله الشر أهكذا تفائل خالك ؟

كان يقضم اللقمة بلا مبالاة • أحس باسترخاء يلف جسده ، وشعور بين الخدر والراحة يدب في جسده • قطع شروده كلام ماجد :

ـ خالي أتذهب اليوم الى مدينة الالعاب ؟

ـ لدي شغل مهم !

قالت الام وهي تدس قطعة سمك في فم ابنها :

ـ يصحبك غدا •

ـ نركب الطيارة فتطير بنا فوق •

ـ أما تخاف أن تسقط ؟

ـ سيمسكني خالي •

الصغير يتكلم والسمك يملأ فمه ، واذ يبتلع اللقمة يسارع الى الالحاح على أمه ، ثم يعود لاسئلته :

ـ خالي ، ترتفع بنا الطائرة عاليا ؟

ـ نعم •••

ـ عاليا عاليا حتى نصل الى السماء •

توقفت الام عن فحص السمك ، ولوحت موبخة ، نفض كريم يديه من الطعام • نهض • ظلت الام تتمتم ببضع كلمات ، فلعل الطعام لم يكن لذيذا ، وربما انزعج من الصغير • ظل يؤكد شبعه ، كما اعتاد بعد كل وجبة تستطلع رأيه فيها •



Scanned with CamScanner

## - ٣ -

في الموعد المقرر ضغط على زر الجرس ، ثم دلف ... قال :

ـ أشبه الانكليز في المواعيد .

ابتسم صالح ، تغيب قليلا ، ولم تنقض الا فترة حتى انفرج الباب ، فدخلت العجوز تحمل صينية الشاي . نهض كريم يرد على الترحيب . جلست على كرسي مقابل . قالت تكشف عن أسنان صناعية :

ـ كيف هي أختك لقد حدثني صالح عنكم .

قال وهو يرشف الشاي :

ـ انه أقرب أصدقائي .

ـ هذا بيتك وأنا أمك .

دخل صالح . اتضح لكريم أنه اختفى ليغير ملابسه . نهضت الام . اعتذرت وهي تغلق الباب خلفها .

قال صالح بعد خروج والدته مباشرة :

ـ أرافقك فترة . تلك أمور لصالح الطلبة . قد تتسع لقاءاتنا في نهاية محددة فنصبح أربعة . بعدها يطلق عليك كلمة « عضو » .

تحدث صالح عن الحزب ، واتحاد الطلبة ، وكان يفصل بين الاثنين ، أما كريم فلم يقتنع بالفصل . أخرج صالح ورقة بيضاء، وأملى على كريم عبارات مشروطة . كان يدون ما يسمعه ، وكأنه



Scanned with CamScanner

ينفذ من حلم يقرؤه ساعة صحو يمثل له لذة ألم جديد ، وشفافية عالم يحلق فيه الى أجواء بعيدة .

كان يكتب ورغبة في اكتشاف مجهول جديد تجتاح أحاسيسه . لن يخاف فاحتمالات عديدة تؤجج في نفسه الرغبة . الحكومة ضعيفة وليطمئن . قد ينجح انقلاب شيوعي ، فيكون له فخر على من ينضمون بعد النجاح ، وقد يرحل بعد سنتين فيكون في منجى من خطر .

سنتين وتطأ قدماه الثلج . حين يحتضن بصره الجمال والخضرة فيعيش كما يرغب في دنيا رسمها قبل أن يراها . توقف صالح عن الاملاء . طوى كريم الورقة . قال الاسمر بابتسامة :

ـ غدا في الرابعة نلتقي . سنتعلم أمرا ضروريا .

ـ الرابعة أكون مشغولا .

ـ هنا لا . الاساس ما يقوله التنظيم . يموت والدك . تنقلب الدنيا . الرابعة يعني الرابعة .

تذكر الصغير ماجد ومدينة الالعاب ، ورائحة السمك . سيكذب على الطفل أول مرة . لا يهمه اذا كذب على أخته أو زوجها ، وان يثير أعماقه الكذب على الناس ، لكنه يكذب على طفل وضع ثقته فيه ، ورسم ليوم غد صورة السماء والارض ، ها هو يطعن أحلام غد الوردية في عيني ماجد . قال صالح :

ـ التشديد هذه الايام ضروري ، فقضية الكبريت تشغل الساحة ، وكل الاحزاب في حالة طوارىء .

ـ الحكومة لم تبد رأيها لحد الآن !



Scanned with CamScanner

ـ على هذا الاساس الموعد مقدس • انه يعني تبليغ أوامر جديدة ، ولا تنس أنك حديث الانتماء •

أشاعت كلمته الاخيرة برودا في جسد كريم ، وقد ظل صاحبه يركز في حديثه على الضبط ومدلوله • أحس كريم أن الحديث يكاد يمثل مباشرة مبتذلة ترجعه الى عهد الطفولة ، وعبارات توجيهية من معلم لطالب في سنته الاولى ، لم يقاطع • واصل صالح حديثه :

ـ شخصية الرئيس مهزوزة ، وقد فسحت لقادة الحزب أن يتنفسوا •

ـ ربما هي كمين • فالمفروض ألا تتكرر انتكاسات الماضي •

كان كريم يسمع عن أخطاء وقع فيها الشيوعيون • لم يحن الوقت ليطرح سلبيات الماضي أمام صالح • قال بصورة تتجرد عن المباشرة :

ـ ما يعنيه برأيك تجاهل الحكومة لنشاط الحزب الشيوعي؟

ـ أمور مختلفة ••• عبد الناصر انفتح على المنظومة الاشتراكية ، والحكومة تعد نفسها ظلا لمصر •

ابتسم صالح وعاد الى حديثه :

ـ الاكراد ينتشر في صفوفهم التنظيم • الحكومة تستعيد بعض توازنها ، لكن ذلك لا يعني أننا نسكت على خطأ كبير •

ـ لحد الآن لم أسمع أكثر من أن الدولة حاورت بعض الشركات •

ـ المسألة معقدة ، اعطاء الكبريت لشركة امريكية هو بنظرنا



Scanned with CamScanner

وقد رأسمالي في البلد .

ـ ألا تحدث تصفية لما يشبه عام ١٩٦٣ ؟

ـ ربمـا .

كان كريم يعجب بواقعية صالح . أحيانا يضجر من عبارات عاطفية تتخلل الحديث . حلت فترة صمت . نظر الاسـمر الى ساعته . قال وهو يعتذر بابتسامة :

ـ لدي موعد بعد نصف ساعة .

فهم كريم ما عناه . نهض يصافح رفيقـه الذي شيعه الى الباب .

★ ★ ★

حين استيقظ تذكر أنه أرق الليلة الماضية . ظل يحضر عذرا يقنع به الصغير ماجد . تناول فطوره في المطبخ كعادته ، وكانت أخته تستيقظ مبكرة كوالدتها . قال وهو يخطو الى الخارج :

ـ لدينا حفلة أدبية في المدرسة . أقنعي ماجد أننا لن نذهب اليـوم .

قالت مبتسمة :

ـ الليلة الماضية رقد جنبي يحدثني عن الطائرة .

رد الباب ، خرج ، ووصل الى المدرسة والجرس يدق .

كانت أيام الطلاب أقل من عادية . أكثر الساعات ضجرا تلك التي يقضونها على الرحلات . يصغون الى الاساتذة ، وهـم منفصلون عن الشبح المنتصب جنب اللوحة السوداء لا تتابعـه الا عيونهم ، وفي الاستراحة يتحدثون بطريقة تختلف عما يسمعونه ويقرؤنه في كتب مفروضة . السياسة تحتل الصدارة في أحاديثهم



Scanned with CamScanner

والجنس ، السياسة تعني الدولة والمجتمع ، وكل ما في داخل النفوس ــ الجنس يعني الحرية المكبوتة وأوربا . قد يتحدثون عن الشذوذ فتلتف خيوط الدولة بأجساد العاريات .

قال الاستاذ وهو ينظر الى ساعته :

ــ بقي من الوقت خمس دقائق .

قال طالب هم بالتثاؤب :

ــ تعبت أستاذ .

ــ المفروض أن يكون الدرس أربعين دقيقة .

قال طالب جلس نهاية الطابور قرب الحائط :

ــ أسافرت الى أوربا أستاذ ؟

وقال أحد الطلاب قبل انتظار الجواب :

ــ هل الدرس في أوربا خمس وأربعون دقيقة كما في العراق؟

ــ وهل أبحث في أوربا عن درس ؟

ابتسم الطلاب بخبث . قال الطالب المشاكس الذي أشبعه الاساتذة زجرا :

ــ العام الماضي رأيتك في أوربا راكبا دراجة وقد دهست اذن أحد الاشخاص .

غرق القسم في الضحك . ابتسم الاستاذ من غير غضب . قال كريم بعد فترة صمت :

ــ أتعرف الطريق الى التعامل الحضاري والسياسي من منطلق الجنس ؟

ــ الحقيقة العكس . لا نفكر الا بعدد الفتيات .



Scanned with CamScanner

خرج الاستاذ لسماعه الجرس • في الاستراحة التقى كريم بصالح • هتف الاخير :

ـ حاول ألا تقابلني في المدرسة • ولا تنس موعد اليوم •

افترقا ، ثم خرجا مع سيل الطلبة منفردين • كان كريم يفضل أن يهرب اليوم بالذات من البيت • الرغبة في عيني الصغير تشعره بالحرج والذنب ، وتغلفه بدائرة الحيرة والارتباك فهو يعرف الحق مع الصغير • الصغار لا يفهمون الغاء موعد • يفقدون الثقة بنا لكذبة صغيرة • ارتسم الخطأ أمام عينيه حين أخبر أخته بالعودة الى الغداء •

لقد ميز نظرة عتاب في عيني الطفل ، جلست الام كالعادة قرب الصينية • اتخذ ماجد مكانه المعتاد ملاصقا لكريم • فضل أن يلوذ بالصمت لكن الصغير مط شفتيه • قال :

ـ خالي أنا زعلان منك ، لماذا لا تأخذني للاحتفال ؟

ـ ألم تخبرك ماما خديجة ؟

قالت الام مقاطعة بحزم :

ـ أترغب أن يحار فيك أو تضيع في الزحام ؟

ـ اسمع كلام ماما !

توقف كريم كأنه يبحث عن عبارة مناسبة ، تخرجه من دائرة الذنب ، قال الصغير :

ـ لو ركبنا الطائرة اليوم ، لصعدنا الى النجوم ، وكنت أقطف واحدة لك واثنين لبابا وماما •

قالت الام : نجمتي لك •



Scanned with CamScanner

قال كريم : نجتمي لك •

ـ بابا يعطيني نجمته !

أحس كريم أنه تحرر من طوق الذنب • قال يلوك اللقمة :

ـ ماذا تفعل بباقة النجوم ؟

رفع الطفل يده المبللة بالمرق الى كتفه ، أطلقت الام ضحكة خافتة ، وهي تمعن في رقعة المرق على كتف ابنها • قال الصغير :

ـ أضعها هنا !!

مسك كريم يده قبل أن ترتقي الى كتفه الايسر • قال :

ـ تكون ضابطا ؟

ـ أصبح الزعيم !

قالت الام تشمئز من طالع مجهول :

اسم الله عليك • تريد أن تموت ؟ جثث القتلى تنقل كل يوم من الشمال ، اذا نجحت سيرسلك والدك الى الخارج •

ـ سلنتقي هناك • أنا وأنت في أوربا !

نفض يديه من الطعام ، ترك الصغير يعبث بالمرق والخبز • ووالدته تحزره مرة ، وترق فتبتسم مرة • حاولت أن تبقيه لتناول الشاي لكنه لم يعرف لمَ يتعجل الخروج ألأنه يحاول أن يهرب من ذنب يجعله صغيرا بنظر ابن أخته ماجد أم الرغبة في أن يعرف أوامر جديدة من صالح •

كانت الساعة تعلن الواحدة حين خطا الى الشارع عبر الزقاق الى الطريق الرئيس ، ثم خلف جامع سيد سلطان علي وراءه ، واتجه الى زقاق ضيق لبيوت بغدادية قديمة • كان المشهد يتكرر



Scanned with CamScanner

أمام عينيه ، مياه البيوت ، مخلفات القمامة • الرز والخضروات التي تملأ مجرى الماء وسط الشارع ، والمجرى وسط الزقاق الخيط الذي يربط بيت أخته ببيت صالح ، كأنه ينجرف ببطء وهدوء مع قطع الخبز والاوراق ويصل الى بيت صديقه •

أبصر سيارة « فولكس فاكن » صغيرة موديل « ١٩٦٠ » رمادية اللون قرب الباب • انتظر برهة • استقبله وجه صديقه صالح بابتسامة معتادة • قدمت الام تحمل صينية الشاي •

لم تغير ملابسها • ظلت الايام تسبقها وتستسلم على جبينها وفي تجعد خصلاتها • ألقت التحية ثم جلست • بقي السؤال التقليدي تحيل الصدارة في الحديث • كيف أنت ؟ أحواك أختك؟ كيف هي الدروس ؟ وانصرفت لشؤونها تاركة الصينية وانـاء الشاي على المنضدة •••

قال صالح وهو يدير لنفسه قدحا :

ـ استعرت سيارة خالي ، لا تنس أنه تقدمي ، أعتقد أنهـا لفتت نظرك عند الباب ، سأعلمك قيـادة السيارة ، فالمفروض بالعضو أن يعرف مجالات المراوغة والاختفاء • فضلت هـذه السيارة لان مبدّل السرعة جنب كرسي الجلوس •

ـ هل نبدأ ؟

قال صالح يحك صدغه كأنه افتكر شيئا :

ـ قبل أن نبدأ أود أن أشير الى متابعة الاخبار من الاذاعة السرية ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢١ •

ـ سأحاول أن ألتقطها •



Scanned with CamScanner

ـ الراديو عندكم في غرفة الاستقبال كبير يلتقطها بوضوح .

صمت برهة ثم واصل :

ـ درس اليوم « الرجعية التقليدية » .

استمر صالح يشرح مصطلحات حفظها عن ظهر قلب . قد تستفيد الرجعية من فئة ثورية فتدفعها للوقوف بوجه الاحزاب الشيوعية التي تدعي الماركسية، وضرب مثلا بالصين ويوغسلافيا.

كان كريم يقتنع ببعض العبارات ، روسيا حسب تقديره محقة في مواقع ، فهي ليست مؤهلة للدخول في صراع مع الغرب ، لكنها تلام على أخطاء سببها تقديم مصالحها الخاصة على مواقف مبدئية . كانت الالسن تلوك أسماء عديدة .. تروتسكي . تيتو. سلام عادل .. عبد الله مسعود .

لم يناقش . لقد اعتاد ألا يدخل في جدل ليس لصالحه منذ البدء . انتهى صالح من قراءة الموضوع الذي غلفه بجريدة حكومية ، وكان على ما يبدو جزءا من كتاب مطبوع ، قال :

ـ الآن ألقي عليك أسئلة .

في أعماق كريم ضيق لاية مباشرة في الاسلوب . في المدرسة أذا أحس الاستاذ أن أحد الطلاب يسأله للاختبار ينهال عليه ضربا . عيب أن نسأل الآخرين بمباشرة مقصودة لنعرف مدى استيعابهم . المكان لا يتخذ هيئة مدرسة ، الاستاذ محق في نظرته . لعل كريم نفسه يفسر الامور دائما لصالحه ...

أحيانا يعرف كلمات ومصطلحات ، ويغاضى عن الاجابة ، فيترك لصالح تفسيرها عندئذ اقتنع المسؤول أن الرفيق الجديد

استوعب الدرس ، قال :

ـ لا أخبار ثانوية • حدث الكبريت يستأثر باهتمام الناس ، والاحزاب قد تدعو لاضراب •

ـ سنتضرر نحن طلاب البكالوريا •

ـ مصلحة المجموع أهم •

لم يحس صالح أن رفيقه يتعجل لذة الجلوس خلف المقود ، قال :

ـ أنت مطالب شهريا بكتابة تقرير عن أية ظاهرة ، الشارع ، العادات ••••

أغلق صالح الكتاب • نهضا خارجين • جلس خلف المقود ، وبجانبه كريم • استدارت السيارة مخترقة شارع الرشيد عند حافظ القاضي ، ثم تجاوزت ساحة النهضة ، وكانت القناة ••• الآن تمسك المقود ، مبدّل السرعة جنبك • لو كان أسفل المقود لواجهت صعوبة • أنت المسيرّ • ارادتك هي التي تتحكم • انظر الى حافة السيارة الامامية فوق العجلة •

خيل الى كريم أنه لا يضجر تلك اللحظة• يحب سماع الاوامر فلا تبعث في نفسه أية نرفزة أو ضيق ، انه اللحظة تلميذ ، الكلمة تسقط في داخله اعتبارات كثيرة • فعل الامر يوحي اليه بالاشمئزاز ، واختبار معرفة القدرات ، أما هذه الساعة فلا يكره هيئة التلميذ ، يحس بلذة لسماع أي أمر ، ويتطلع الى أي اختبار •

انتقل صالح الى المقعد الآخر• اتخذ كريم مكانه خلف المقود•



Scanned with CamScanner

أدار مفتاح البنزين • حرك مبدّل السرعة ، خالطه شعور بالعظمة • تابع ببصره الطريق ، وهو ينتبه لاوامر صالح •••

الدنيا تسير بين يديه ، اليوم ، أمس ، الغد ، كلها تختفي تحت العجلات ، وتبقى الارض تدور ، وكريم المحرك ، العقل هو مسير الكون • أنت تبصر نفسك بداية الحركة فأنت من يوقف ، وأنت من يحرك الدنيا • غدا تبقى حرا فيما تفعله ، سواء كنت وحدك أو جلس جنبك أحد •

أشرقت الشمس على المغيب ، قال صالح وهو يربت على كتف كريم :

ـ يكفي اليوم ما تعلمته ، لقد اختصرت أشياء كثيرة نحو الكمال •

استلم المقود وعاد من الطريق نفسه • ترجل كريم في ساحة حافظ القاضي ، وواصل صالح سيره متجها نحو شارع الرشيد •

★ ★ ★

ـ اليوم تذهب معي الى مدينة الالعاب •

ارتمى الصغير ماجد على صدر كريم • قال :

ـ أعطني قبلة •

قالت خديجة : خذ حذرك ابتعد عن كل ما هو خطر •

حاول كريم أن يغير مجرى الحديث • لكن الصغير سبقه :

ـ خالي أشتكي عندك على ماما !

ـ ماذا فعلت لك ؟

ـ انها تسجنني حتى لا أخرج •

ـ خالك نفسه كنت لا أسمح له وهو صغير •



Scanned with CamScanner

ثم واصلت وهي تلوي شفتيها :

ـ أتتشبّه بأولاد الشارع • ترمي نفسك في التراب والطين • انهم أولاد حرام لا يؤثر فيهم الحر والبرد ، والله سأذبحك عندما أراك معهم •

نظر الى الصغير نظرة اشفاق كأنه يبوح اليه سرا غير مخفي انك لا تتحرر من بعض الاوامر حتى تكبر مثلي •••

دخل غرفته • استلقى على السرير ، رن جرس الباب ، فمن القادم ، ، انقضت نصف ساعة • اقتحم بعدها ماجد باب غرفته، وفي يده نصف دينار •

ـ بابا أعطاني هذا •••

توجه الى الغرفة التي اعتادوا أن يتجمعوا فيها ، وجد أن زوج أخته غير ملابسه ، وهم بتناول الطعام •••

جلس ماجد ملاصقا كريم ، اتخذت الاخت موقعها قرب ماكنة الخياطة اليدوية • قال الاب :

ـ مصروف ماجد معه انتبه يا كريم لجيبه •

قالت خديجة :

ـ ولو أني أخاف عليكما من البرد •

ـ خذا حذركما من السيارات والاخطار •

وقال ماجد : ألا تذهب معنا ؟

ازدرد الاب اللقمة • قال :

ـ أنا أكره مدينة الالعاب •

قال كريم : انها للكبار والصغار !

ـ أكرهها لان طاهر يحيى بناها .

قالت خديجة :

ـ الفكرة كانت زمن عبد الكريم قاسم .

مسك الصغير يد كريم يحثه على الخروج . شيعتهما خديجة، وضعت يدها على زاوية مصراع الباب ، قالت :

ـ لم يرد سلمان أن يحرجك . أعطاني لك نصف دينار .

ازدرد كريم ريقه . ضغط على يد الصغير . دس نصف الدينار في جيب قميصه . وقفت خديجة برهة تنتظرهما يقطعان الزقاق الى شارع الرشيد .

ركب الحافلة الى ساحة التحرير ، ثم استقل سيارة الى ساحة الطيران ، فمدينة الالعاب . كان يفكر في ركوب الدولاب الكهربائي ، ثم الطائرات وسيارات التصادم ، لكن فكرة العنف في التصادم حولت أنظاره عن تلك اللعبة .

كان الطفل مشغولا بقمع المرطبات ، حين دفع ما بقي منها في فمه ، مسح كريم شفتيه بمنديله . قال :

ـ خالي متى يتحرك ؟

ـ عندما يكمل عدد الناس .

ـ لماذا لا يكمل عدد الناس ؟

ـ سيأتون .

ـ لماذا يتأخرون ؟

بعد تململ تحرك الدولاب . قال الصغير وبسمة عريضة ترتسم على شفتيه :



Scanned with CamScanner

ـ الآن نصل الى السماء .

ظل كريم يتطلع الى أسفل . ازداد الطفل في الحاحه :

ـ لماذا لا يضعون دولابا يصل الى السماء ؟

ـ لمَ هي بعيدة ؟

ـ هكذا بدأت .

ـ هل تسقط على رؤوسنا ؟

ـ عندما تكبر تعرف .

ـ من خلقها ؟

ـ الله .

اقترب الدولاب من نقطة ارتفاع قصوى ، ظلت الابصار شاخصة للعالم السفلي ، وكأن القطع الدوّارة عربة هربت من الجحيم ، ثم ارتدت بكل ثقلها وعنفهـا ، وحين لفحتها النـار ارتسم في هبوطها بطء وتردد !

وظل الدولاب بهبوطه البطيء يسبق الاشباح ، ونظـرات كريم كالابر تنغرز في الوجوه .. جاءت صوت الطفل :

ـ تكلم .

ـ حسنا ماذا ترغب ؟

ـ هل تصحبني الى بيت خالتي ليلى ؟

الطفل يبحث عن منفذ يخرج منه الى الشارع . قال :

ـ أتحب ليلى أكثر من سلوى ؟

ـ خالة سلوى ليس عندها أطفال ، عندما تصبح بطنهـا كبيرة ، ويخرج منها طفل صغير أذهب اليها .



Scanned with CamScanner

ـ كلم ماما .
ـ لا توافق .
ـ قد أقنعها .
ـ لو كنت أنا ماما ماذا أفعل ؟
ـ حسنا قل لي .
ـ ألد عشرة أولاد حتى يلعبوا معي !!

ـ ٤ ـ

استدار صالح من الفلكة متجها نحو النهضة فشارع الرشيد. قال ويده على المنبه ليسبق شاحنة كبيرة :

ـ الآن أنت تجيد القيادة . الايام القادمة أتـرك السيارة بيدك في الشوارع المزدحمة .

ابتسم كريم . بعثت فيه كلمات صالـح صورة لمن يرقّص وحشا ، أو يكبح جماح حصان هائج .

ـ أي يوم تختاره ؟
ـ الجمعة .
ـ يوم الخميس ، أذهب لزيارة أختي .

كان على كريم أن يعلن ارادته في بعض المواقف ـ صحيح أن صالح ينطلق مـن فكرة الضبط ، لكن اذا كان صديقه يحترم المواعيد فموعد الصغير سبق الاجتماع . قال صالح :

ـ على الرغم من ارتباطي فسأجعلك تختار موعدا مؤقتا .
ـ ليكن يوم السبت .



Scanned with CamScanner

نزل كريم من السيارة في المكان المعتاد • في البيت كان يفكر بصياغة عبارات يقنع بها أخته بعد مقدمة تكون مدخلا مناسبا • قال :

ـ سأزور ليلى هذا الاسبوع •

قال كمن يحاول أن يتجاهل :

ـ أنا لا أتحرك من مكاني غير أني لا أقطع رحم أمي •

ـ أنت مشغولة وهما مشغولتان •

ـ أنا أكبر منهما ، الواجب أن تزوراني ، ليلى لا تسمع كلامي ، وتترك أولادها يتسيبون • أنت كنت صغيرا لا تتذكر • والدتنا أكبر خالاتنا • لا تترك لواحدة منهن • أحيانا اذا غضبت على احداهن تهينها أمام زوجها وأولادها •

لم يكن كريم ليهتم بمتابعة شؤون صغيرة ، ولم يشمله موقف البرود ، فهو حل استثناء بين الاخوات • زارت خديجة ليلى مرة، وجدت أبناءها في الشارع يعلو التراب ملابسهم ، والمشاحنات بينهم وأطفال الجيران ، ولعلها حسبما تقول سمعت طفلا يسب ابن اختها • ليلى تجاهلت المشكلة • خديجة انتقدتها علنا ، وزار تفورها أنها وجدت الصغار يلعبون بالخضار والرز وهي تطبخ • ان تعاليم أمها تضيع في بيت أختها الوسطى ، وربما تضيع غدا حين ترزق سلوى بأطفال • عرف كريم أن مقدمة اخته انتهت • قال :

ـ أعتقد أنك لا تمانعين !

ـ لا تسمح لا طفالها أن يؤذوك أ يتطاولوا أمامك • أي منهم يزعجك العن أبويه •



Scanned with CamScanner

ـ ما رأيك أن أصحب ماجد معي ؟

ـ سيخرج مع أطفال خالته الى الشارع • أنا أخاف عليه • الدنيا ليست مؤتمنة !

أشفق على الصغير أكثر من اشفاقه على نفسه قال :

ـ أذهب وحدي ؟

ـ اصحبه الى بيت سلوك ، خالته الصغرى ليس لديها أطفال وسيكون معك طول الوقت !

في الصباح كان الطفل يطالع كريما بنشوة منقبضة • لاول مرة تسمح له والدته بالمبيت بعيدا عنها ، تقاسم الصغير فرح وكمد ، ليلة جديدة يعيشها خارج البيت ، لكن رغبته في بيت ليلى حيث جوقة الصغار •

استقل الحافلة عصر الخميس من سيد سلطان علي الى الجعيفر ، كان العالم في بيت سلوى لا يخضع لتصورات متعددة في بيت خديجة !

ضمته الى صدرها • ثم احتضنت الصغير • قالت بفرح :

ـ اليوم هبطت من السماء • زيارتك فرصة لاخرج أنا وحسن وتبقى ترعى الدار •

قطب كريم حاجبيه • مد الرجل الاسمر الذي علت شفتيه ابتسامة يده الى جيبه ، أخرج درهما • مسك يد الصغير ، قال:

ـ بابا أعطاني النقود !

ـ هكذا اذن ، كريم ، يرد ماجد يد حسن ؟

ـ أنتم نعم ، لكن ، قد يقبلها من غريب ، أنت تعرفين أختك



Scanned with CamScanner

وطريقتها .

ـ أهو مسجّل[1] ؟

استاء كريم من تعبير يمس خديجة ، لكنه لم يظهر انطباعاته . يبدو أن سلوى ذكرت غضب خديجة عليها فلمّحت الآن .

وقالت وهي ترفع ماجد بين ذراعيها وتقبله :

ـ أجلب لك هدية معي .

قال حسن :

ـ اذهبي وغيّري ملابسك ، لا تنسي أن تقضي ساعتين أمام المرآ ، أما أنا فسأنتهي بعد خمس دقائق .

دلفا الى غرفتهما ، خرج كريم الى الزقاق . جلس على عتبة الباب ، اتكأ ماجد على ركبة خاله . كانت مجموعة أطفال تلعب « الدعبل » وحلقة تطلق « الخذاريف » ، على الارض ثم ينحني أصحابها ويلتقوطنها ، وهي تدور على راحة أيديهم !

خرج حسن ثم أعقبته سلوى . أثار استغراب ماجد ما وضعته على وجهها . أحمر الشفاه . حمرة الوجنات . سواد الاهداب . زرقة الاجفان . لم يعتد ذلك من والدته منذ أن فتح عينيه للنور . أما كريم فقد رأى خديجة يوم زفافها بهذه الهيأة . لم تعرف ألوان التزويق طريقها الى وجهها . أما سلوى وليلى فتختلفان تماما عن الكبرا . لم يستغرب كريم وجه أخته فكثيرا ما شاهدها في زياراته السابقة ، خاصة عندما تخرج مع زوجها .

---

(١) عبارة تطلق على الذي ينقل كلاما الى آخرين .



Scanned with CamScanner

قالت تسلم كريما المفتاح :

ـ لا تغادر باب البيت • الشارع مزدحم وفيه تسلية •

قال حسن :

ـ اذا رغب ماجد أن يلعب مع أطفال الجيران فاسمح له •

ـ انهم لا يأكلونك يا ماما • اذهب والعب معهم •

لفت عباءتها على صدرها • خطت مع زوجها خارج الزقاق ،

قال ماجد :

ـ ماذا وَضَعَت ماما سلوى على وجهها ؟

ـ عيب هذا لا يعنيك •

ـ هل ألعب ؟

راح الصغير يتطلع الى موجات الاطفال ، أما كريم فقد ارتسم في عينيه الشارع الذي يطل عليه بيت خديجة • أصوات الاطفال التي تزعجه في عمق نومه عند ظهيرة تموز • هذه الاصوات التي أراد أن ينطلق معها يوم كان صغيرا والتي يفكر بها ماجد الآن ! ضرب « الخذاريف » • النبرات العالية ، الشتائم • أحيانا يخرج سلمان العلي وعيناه محمرتان فيشتمهم وهو ينهزمون •••

دقائق كان يفصله عنهم ، انفراج باب مقابل ، قبل خروج سلوى وزوجها كان يتحفظ• راح يضرب الارض بالمفتاح ضربات خفيفة • انتبه الى ماجد الذي وضع قصبة في مجرى الماء • قال:

ـ أتحب أن تلعب مع الجوقة ؟

قبل أن يكمل أطلق الصغير لساقيه العنان ، لاحقه بنظراته ثم غاب وسط المجموعة • وضع المفتاح في جيب الصدر • ابتسم



Scanned with CamScanner

ابتسامة عريضة ، رفع يده يحييها باشارة خفيفة رفعت يدها الى رأسها ، وعبثت بخصلة شعر انحدرت على مؤخرة حاجبهـا • تذكر كريم أنه شاهد البطل في أحد الافلام الهندية يلف" رسالة بحصاة يرميها الى عشيقته • ابتسم في سره • فكر في امرأة تبادله المشاعر • قرأ عن رغبة امرأة في كبت الجنس ، وكيف تلتهم رغبة الرجل • كل ما يعرفه أنه حين يجمع نصف دينار من يوميته ، يجتاز شارع الرشيد مشيا على الاقدام • أحيانا يستقل المصلحة، فيدلف في بيت من بيوت الميدان القديمة ، يحتضن امرأة ويقبلها، يلبث وهي بين يديه ثم يفرغ سمومه ويخرج كالعقرب • كـل ما تقابله به امرأة في تلك البيوت حسبما يعتقد ويسمعه ، تمثيل وبرود ، ولم يتن ليطفيء عطشه • يرى الشـباب في الافـلام الاجنبية ، يتأبطون الفتيات • كان يشعر بعطش الى امرأة مـن نوع آخر ، فتاة الباب الواقفة أمامه ، تمثل ارتواء لم يعرفه من قبل •

حين شارفت الشمس على المغيب ، وبقيت خيوطها تتسل من العتمة تجرأت لتخرج من الباب • ومن خلال شحوب الضـوء شاهد قامتها •• بيضاء ، ناعمة الشعر ، واسعة الجبهة ، ينسدل ثوبها البيتي باثارة فوق كتفيها وعجزها ، وينحسر عن ركبتيها • ساقان ممتلئتان ، تخلوان من شعر ناعم تعاني منه معظم النساء•

جلست على حافة الباب المعبدة بالاسمنت • لفت ركبتيها بطرف ثوبها • فتاة تبعث في جسده الحرارة والقشعريرة • نسي الصغير لكنه انتبه الى صوته وسط الجوقة • انتفض من مكانه



Scanned with CamScanner

يستطلع الامر • توجه الى جوقة الاطفال ، انهزموا أمامه وكل واحد يلقي تبعة الفعل على الآخر • لحظة وكان الشارع يخلو منهم • أخذ الطفل يصرخ ، انسابت دموع غزيرة على خديه • انتفخت كرة على جبهته • لم تترك الفتاة كريما مع الطفل وحده• اتجهت الى الصغير ، وضعت يدها على كتفه ، ورفعته قالت :

ـ اجلب لي معقماً •

ـ انتفاخ فقط •

ـ أهو أخوك ؟

ـ ابن أختي •

ـ أنت أخو سلوى ؟

توقف الطفل عن البكاء • أخرجت علكا من جيبها ، دسته في فمه • كانت عيناه تتابعان كريما والفتاة • قال كريم :

ـ أتعرفين أختي ؟

ـ **قليلا • نحن بالنسبة اليهم البيت الرابع في الترتيب، والجار في هذا الزمان يعني الدار جنب الدار •**

ـ اسمك ؟

ـ الهام • وأنت ؟

ـ كريـــم •

ـ يظهر أنك ولدت بعد ثورة تموز ؟

ضحك من عمقه • قال :

ـ ربما •••

ثم استدرك : كلنا والدنا بعد الثورة •



Scanned with CamScanner

ـ أتزور أختك كل يوم ؟

قال الصغير ، وقد راحت يده تداعب الكـرة المنتفخـة في جبهته :

ـ خالي يسكن عندنا .

ضحكت بنبرة عالية . قال كريم :

ـ أراك الخميس القادم .

قبلت الصغير . دلفت داخـل البيت ، وعيناها تلاحقانـه بنظرات لها معنى . قال ماجد عندما خطى أمام خاله ليدخلا الدار:

ـ لقد سرقوا دراهمي .

ـ الآن عرفت أن ماما على صواب .

لم يكن يفكر بحجة يقنع بها أخته خديجـة ، فقد ألهـاه حديث الفتاة عن شجار الطفل . سلوى لا تتعب الفكر بايجاد عذر . التعقيد في بيت خديجة ؟ في كلا الحالين هو مهمل . سلوى مثله . نمسل وجه الصغير بالماء ، أحضر معقما ، مسح به الكرة المنتفخة .

قال ماجد : أنا جائع .

ـ بعد قليل .

ـ لكني نعسان .

اعتادت والدته أن تطعمه في السابعة ، ما تكاد العقارب تجتاز النصف حتى يغط في نوم عميق . قال كريم :

ـ نم وحين يصلان أوقظك .

استلقى على الكنبة . أغمض عينيه . ظل خاله يرتب الكرة



Scanned with CamScanner

المنتفخة • ها هو الصغير ينام جائعاً ، سمع من أخته مرات : خطأ أن ينام الطفل جائعاً ، وألا يذهب الى المرحاض • أخته بالطبع سمعت الكلام عن أمها • لا يعرف أين تنتهي السلسلة ، وعند أية جدة تتوقف ، أخيرا ليس أمامه إلا أن يعترف لخديجة بالحقيقة ، فلو أخفى السر ، أذاعه ماجد بصراحة •

حاول أن يبحث عن طريق ينفرد به عن الضجر والسكون المتعلق بأنفاس الطفل الهادئة ، وضربات ساعة الحائط الجاثمة في فناء الدار • نهض الى الراديو القديم • أدار الموجة • انسابت من اذاعة بغداد أغنية تشيع في الغرفة جوا من الصوفية :

آمنت بالله نور جمالك آية آية من الله

استلقى على الاريكة ، واستوحى بأعصاب مسترخية ذلك الوجه الذي طالعه قبل المغرب • الابتسامة الشفافة • النبرة الدافئة • حلق في كلمات الاغنية ولحنها وهو يحمل على راحتيه جسد الهام ، ويتغلغل في شلال الضوء ، لكن الراديو قطع عليه أحلامه وانبثقت من عمق الاغنية عقارب الساعة • تلاشى اللحن الصوفي • وكان المذيع يقرأ نشرة الاخبار • لفت نظره خبر بين مجموعة أحداث• ليس من جديد عن الشمال، وعملية الهدنة مؤقتة • كان الخبر في الموجز « وزير الصناعة يستقبل وفدا أمريكياً » • مر الخبر في التفصيل دونما زيادة إلا اضافات شكلية • عليه أن يفكر بالامر • ألم يدخل عالم السياسة ليصبح في المقدمة • هو من طاقم السفينة لا راكبيها • الخبر يثير في زميله صالح معاني مختلفة • الحكومة ترغب في منح الكبريت



Scanned with CamScanner

لشركة أمريكية • تحولت ابتسامته إلى ضحكة مرتفعة حين انتهت الاخبار ، وعزفت المحطة الموسيقى التقليدية لختام النشرة ، بينما بث الراديو بعدها مباشرة أغنية لبنت الريف :

أدور على الصدگ يا ناس ضاع وبعد وين الگاه

انتبه إلى صوت منبه الباب ، نهض وكانت أفكاره تنتشله من الجوع والصدق الضائع • قالت سلوى :

ـ الحلوى لماجد •

ـ نام كعادته •

قال الزوج : أي نوم هذا ؟ الدجاج ينام مبكراً •

هز الصغير يحثه على الاستيقاظ ، لكنه لم يستجب • عاد الزوجان بعد أن غيرا ملابسهما • قالت سلوى :

ـ نحن جوعى ، ولو بدأت بالعشاء لتأخرت •

عقب الزوج : جلبنا سندويشات أسرع •

لم يجب ، فتلك أمور لا تثير في نفسه أية تداعيات • قال يوجه الكلام لأخته واللقمة في فمه :

ـ الاطفال ضربوا ماجد •

قال الزوج الذي ازدرد اللقمة :

ـ السبب منك • أنت تركته يلعب معهم • هؤلاء مثل الكلاب إن رأت غريباً انقضت عليه •

تذكر أنهما في البداية طرحا فكرة اللعب مع أطفال الحارة • لقد استاء من تعبير صهره لكنه أعرض عن أية ملاحظة تجعل العلاقة متوترة • نهضت سلوى تتطلع في وجه ابن أختها ، قالت:



Scanned with CamScanner

ـ أولاد الحرام ! ماذا نفعل لهم !

تصور أنها تحاول التخلص من كلمة قالتها قبل أن تخرج ، وكأنها تعد الحدث عابرا لتؤكد كلام زوجها • قال :

ـ كيف نعلل الامر لخديجة ؟

ـ أرغب أن أتحدث معك في موضوع أنت مستعد لقبوله :

انتهى الزوج من اللقمة • قال :

ـ لن أتدخل بينكما •

قالت الاخت تقدم لحديثها :

ـ ربما لا تعرف خديجة • انها صورة المرحومة • كانت لا تسمح لنا بالذهاب إلى بيت خالاتنا لتحفظنا من الشارع • إنها أختنا الكبرى ونحن نحترمها ، ولولا أن ليلى تحبها لاغتاظت منها •

ـ أحدثتك عنها ؟

ـ حين تزورها تنتقدها في كل أمر • هذا الاناء وسخ • طفلك يسبح في الطين • اهتمي بترتيب البيت •

ـ ربما تقصد النصيحة •

ـ ليلى قللت من زياراتها •

ـ انها الكبرى •

قال الزوج يحاول أن يخرج عن تجاهله :

ـ أنا بصراحة ، لو رزقت أولادا أمنحهم الحرية • الحياة ، الموت ، بيد الله • السيارات والحوادث مسببات •

قالت سلوى معقبة ، وهي تنهي مقدمتها :



Scanned with CamScanner

ـ اذا جئت تعال وحدك • لا تحرج موقفنا ، فالافضل أن نبقى أحبة •

عرف كريم أن المقدمة الطويلة كانت مدخلا فخماً لسطر واحد • قال :

ـ كما يعجبك •

وعادت سلوى إلى مقدمتها :

ـ هي أختي الكبرى ، رغم ذلك فضلت بعد وفاة والدتي أن أعيش في بيت ليلى • الشدة أكثر من حدها تسبب المرض •

قال الزوج بنبرة أشاعت النفور في كريم ، وعيناه تتطلعان في ماجد حيث راح نفسه يهبط ، ويصعد :

ـ أهو مسجّل ؟

ـ كل الاطفال يلتقطون سريعاً •

ـ أولاد ليلى لا ينقلون أي خبر •

كانت ليلى هي المثال ، والنموذج برأي سلوى ، ويبدو أن زيارات أخته الوسطى كانت تتركز في بيتها مؤخرا • كان الحديث خالياً من أي تهجم غير أنه يبعث في نفس كريم بعض الضيق ، ما دامت خديجة هي المحور •

في الصباح جلس ماجد كعادته قبل الجميع • كان يوم جمعة• الزوجان ما زالا نائمين • تثاقل كريم من حركة الصغير • نهض وغسل وجهه • قال ماجد :

ـ متى نذهب للبيت إني جائع ؟

ـ اش • لا ترفع صوتك •



Scanned with CamScanner

لم يمض وقت طويل حتى سمعا خطوات سلوى ، وهي تدخل الغرفة بشعرها المنفوش وعينيها المحمرتين ، وبقايا التزويق على وجهها . تبعاها الى المطبخ . أعدت لهما الجبن والشاي وبدأت تتناول فطورها معهما . قالت :

ـ اعتاد حسن أن يتأخر يوم الجمعة .

أدارت الشاي وواصلت :

ـ أأنتما على عجالة ؟

ـ أحضر دروس الغد .

وحين شيعتهما إلى الباب ، همست باذن كريم ، وهي ترقب عيني ماجد :

ـ تعال وحدك .

ـ قد أزورك الخميس .

ـ تعال كل يوم .

قبلّت ماجد ، ثم تمتمت مع نفسها :

ـ اللهم نجنا من لسان خديجة ، ستعتقد أن ماجد دخل حرباً .

كان كريم يفكر طول الطريق في اختلاق عذر يقنع به أخته . لقد أنساه جرح الصغير ، وانتفاخ جبهته في الزاوية اليمنى الهام ورائحة الدفء التي تشع من حديثها . أيعلم الصغير الكذب ؟ أيجبره أن يفسر جرحه بسقوط على الارض ؟ سرعان ما انصرف عن الفكرة ! خديجة تكره الكذب . إنه يتذكر طفولته ، وخديجة التي حملته بين ذراعيها ، وما يفعله الله بالكاذبين يوم القيامة ، وكيف تأكل النار ألسنتهم . الكلمات ذاتها ترددها اليوم على

مسامع طفلها الذي أرادته صورة لخاله الكبير ....

أصابها ذهول إذ رأت الكرة المنتفخة في جبين ماجد . سارع كريم ليختصر عليها طريق الاسئلة . قال :

ـ أطفال الشارع ضربوه .

شهقت . أخذت ماجد بين ذراعيها . قالت :

ـ كسرت أيديهم ، وسلوى ماذا فعلت ؟

ـ كانت خارجة مع زوجها .

ـ حدثني بالضبط ؟

أجابها بصوت خافت يوحي بدلال طفل يمط الكلمات :

ـ خرجت مع العم حسن ، وجهها أحمر ، ثوبها وردي . العم حسن يضع يده على كتفها ، ونحن نقف بالباب .

ـ تخرج لتتركما وحدكما ؟

ـ ربما كانا مشغولين .

وعزز كلامه :

ـ أنا لست ضيفاً .

ـ لا تدافع عنها ، لو كنت موجودة لعرفت ماذا أفعل .

ـ ضربوني وسرقوا دراهمي يا ماما .

ـ كي تعرف أن البيت يحمي الانسان ويبعده عن المشاكل ، اذا دخلت المدرسة وتعلمت القراءة تجلس جنبي وتقرأ قصص خالك .

وجهت كلامها إلى كريم :

ـ لو لم أفعل ذلك لما حافظت عليك . قلبي يتمزق على ليلى .



Scanned with CamScanner

سيسيب أبناؤها ، أما الغبية سلوى التي لا تجيد أي شيء ، فاللهم استر أولادها . ليت المرحومة حية فترى .

مرت فترة صمت . عضت شفتيها كأنها تتنفس عن رغبة في كلام :

ـ الدنيا شتاء . الجرح لا يشفى سريعاً .

ـ انتفاخ بسيط فقط .

ـ قل لي ، عيناه منتفختان ، ووجهه أصفر ، أأكلت طعاماً عسير الهضم ؟

ـ نمت من غير عشاء .

التفتت إلى كريم ، بادر يعتذر عن سلوى ليقطع عليها كلامها :

ـ جاءت متأخرة في الليل تحمل الحلوى والسندويشات . فوجدته نائماً .

ـ اف يا الهي . اللحم في المطاعم تمر عليه فترة .

حاول أن يجد مخرجاً ، فقد بدأت حدة أخته تخف :

ـ المهم أن سلوى بخير وتبعث اليك تحياتها .

عادت خديجة إلى الطعام ثانية : نمت دون عشاء ذلك أفضل! والا كانت بطنك تؤلمك من لحم السوق .

مرت فترة صمت . راحت أصابع خديجة تداعب جبهة ماجد . وجد كريم في الصمت فرصة مناسبة ، ليطرح سؤاله :

ـ سلوى ترغب في أن أزورها الخميس القادم .

قال ماجد :



Scanned with CamScanner

ـ هل أذهب معك ؟

قالت وهي تعود لحدتها :

ـ إنك كالقطة تحب خانقها .

ـ ٥ ـ

حين يجلس في غرفته يتملّى عوالمه المعتادة ، ويتجاذبه أمران : الاندماج في وضع راهن أو أزمة حديثة يمر بها البلد ، فيكون بطلها المنقذ ، المؤهل لان يغير وضعاً لا يرضيه بشكل يوازي أحلامه .

أحياناً تتعرى أمامه إمرأة ، يتتبع خرائط جسدها ، يمارس معها طقوساً جسدية ، يبلتف الامران على البطل : حبل مبروم طرفاه أزمة وجسد إمرأة .

قد يقلد شخصيات متباينة . كان ينتحل صفة بطل أحبه الناس : شخصية عبد الكريم قاسم بالذات . في المدرسة ، عندما كانوا صغارا يذكرونه بعظمة ، اذا صعبت عقدة في مثل ما فالزعيم يحلها ، وان كرهوا معلماً فهو عدو الزعيم ، وسياج المدرسة الشوكي الذي لا يستطيعون الهرب منه فالزعيم قادر على اقتحامه ، أما المرأة التي تتعرى في ذهنه ، فقد ابتعدت عن صورة البطل ليتنزه عنها . أخته سمعت من نساء الجيران أن البطل مشدود الظهر لا يقرب إمرأة . النساء يصدقن ما يقال عنه . البطل الحاضر ليس في غنى عن امرأة ، ينبثق جسدها من الأزمة . لو كان قائد ثورة تموز لتحاشى الخطأ ، سمع رجلا شيخاً يقول إلى سلمان العلي ويتطلع إليه من طرف خفي : لو خلف الزعيم



Scanned with CamScanner

صبياً كهذا لايدناه الآن ، ويعلق شخص آخر أكثر ثقافة : الثورة ولدت عقيمة كقائدها ، أما السؤال الذي ما يزال يرن في أذنه : كيف يعيش بطل من دون إمرأة ؟

تذكر أن عليه أن يكتب ويحصر الانحراف • أقرب النقاط اليه الزقاق • الماء الآسن والحفر في الشوارع ، ونفايات البيوت على الارصفة • كل ما يكتبه من ظواهر هو في قلب العاصمة • ازداد قتام الصورة أمام عينيه لطرف بعيد من العراق ؟ كيف هي اذن العمارة ، والناصرية ، أو البصرة ؟ أسماء تسبح كالضفادع في مستنقعات مهاجرة من العاصمة الى الجنوب •

قال صالح :

ـ تقريرك كان جيدا •

توقف ليرجع السيارة إلى الخلف • قال :

ـ الشوارع تسبح الآن في المستنقعات لكني أتذكر يوم تعبيد القناة •

ـ سمعت أن عبد الكريم قاسم أمر بتعبيدها خلال أسبوع •

وجه السيارة إلى أمام :

ـ كنت صغيرا • أتذكر الآن لاني أتعلم القيادة على القناة • الزعيم ببدلته العسكرية ، وعباراته العميقة ، يأمر أمين العاصمة بانهاء العمل في سبعة أيام ، والناس ينظرون بعجب • لم أفكر يوماً أني أسير على شارع عبّده رئيس دولة رأيته وأنا صغير •

ـ دكتاتور ( وكان صالح يتحدث بحدة ) دكتاتور لانه تقارب مع المعسكر الشرقي ، وألغى حلف بغداد • رجل كهذا



Scanned with CamScanner

في نظر البرجوازية دكتاتور وشعوبي .

استدار نهاية القناة . أمره صالح أن يوقف السيارة . قال :

ـ أأعود بها اليـــوم ؟

ـ نعم ، أما يوم الاحد فتدخل الزحام لتقودها في شـــارع الرشـــيد .

قال كريم عقب فترة صمت :

ـ لننه حديث السياسة . أيعجبك أن نطرق موضوعاً آخر؟

ـ سأستطلع رأيك في الجنس .

اقتربت السيارة من ساحة الطيران ، جلس صالـــح خلف المقود . قال كريم :

ـ لنذهب إلى بيوت الميدان ، فالمومسات يخففن مما نعاني .

ـ لكن بتحفظ ، السلطة ذكية تعرف كيف تشهر بالوطنيين .

ـ الآن أفكر كيف أوفر نصف دينار .

ـ أما أنا فيشغلني الموضوع نفسه .

كان المؤذن قد انتهى من أذان المغرب عندما ترجل كريم من السيارة . وجد أخته تصلي ، ماجد يجلس قريبـــاً منها بيـــده قلم رصاص ، ودفتر قديم ظل يخربش على صفحاته . وقـــال وكأن دخول كريم اقتحام لصمت حاصره :

ـ عندما أكبر أقرأ مثلك .

فرغت الام من صلاتها ، قالت :

ـ أحضر لك العشاء ، أم تنتظر سلمان . انه لن يتأخر ، لقد ذهب إلى الجامع .



Scanned with CamScanner

عبارات الطفل تستل كريماً من عوالمه ، فيجيبه بكلمة نعم أو لا دون تركيز، وكانت العوالم الجديدة ترسم على شفتيه ابتسامة يظنها الصغير تجاوباً مع الحاحه .

مع أي عالم يتعامل ؟ وجه الهام المستدير ؟ دفء كلماتها ؟ بيت سلوى ؟ السيارة وعالم القناة ؟ الميدان .. السياسة القلقة . المغرب يثير احتشاد العوالم ، ونزول الشمس لتختلط الالوان بالاسود يجعله يتحسس أحلامه في غيبوبة .

من ينتشله من الاختلاط ؟ الهام ؟ الميدان ؟ صالح ؟ خديجة؟ ربما الرحيل الى الغرب بعيدا عن مدن المستنقعات ، لكن الرحيل بعيد ، لينتظر سنتين غير هذه ، وفي سنتين بُعد" يوازي ما بين عقله وعقل الصغير ماجد .

أثارت أنفه رائحة شواء السمك ، تلك الرائحة تثيره ، وان كان متعباً . ربما ينحدر من سلالة الجنوب التي يسمونها « الشروگ » فحب السمك لا يقتصر عليه وحده . كل العائلة تحب السمك . المثل يقول : ثلثا الولد على خاله ، فبامكان ماجد أن يأكل سمك عائلة من غير بطنة .

ذكرّه صوت تقلب السمك على الزيت الساخن بدقات الساعة . نهض الى حجرة الاستقبال . وماجد يتبعه كظله . اتجه الى الراديو . ضغط على الموجة القصيرة . أدار المؤشر ليثبته على نقطة صغيرة . انتظر لحظة ، ومن بين صخب الموجات تهادى إلى سمعه صوت قوي : « هنا صوت الشعب العراقي » . اجتاحت الغرفة ضجة لموجات عالية ، اختفى في طياتها صوت



Scanned with CamScanner

المذيع • خفض مفتاح الصوت • هرعت أخته الى غرفة الاستقبال فتحت الباب • قالت :

ـ خلت أن شيئاً سقط على الارض •

ـ الاذاعة السرية •

ـ لولا القلي لجلست وسمعت ، لكن أغلق الباب جيدا كيلا يصل الصوت الى الشارع •

اختفت موجة ذات رنين عال • ارتفع صوت المذيع ثانية • تحدث عن المقاومة والصبر ، ورفض الواقع ، وختم مقاله بكلمة سمعها كريم من صالح « الحشائش تقوى إذا قطعتها » ، لا بد أن رفيقه اقتبسها من المذيع ، فالعبارات المباشرة تجد صدى عند قوى مقهورة •

ارتفعت مرة أخرى نغمة عالية ، وأصوات تشبه الرعد • قال الطفل : كأنها ضفادع • عاد صوت المذيع مرة أخرى بين الذبذبات العالية ، وكان يتحدث عن الكبريت والشركات الامريكية •

قال ماجد وهو يغرق في الضحك : ستعود الضفادع •

رن جرس الباب • أغلق المذياع ، هرول الصغير ، وهو يصيح « بابا » ، وغادر كريم غرفة الاستقبال الى الغرفة المجاورة •••

تحلقت العائلة حول الصينية • اتخذ ماجد مكانه جنب أمه • انتشرت شرائح البصل والخبز ، تطوق دائرة السمك المقلي •

قالت خديجة : ماذا سمعت من السرية ؟



Scanned with CamScanner

قال سلمان : استطعت أن تلتقطها ؟

ـ الصوت غير واضح الذي فهمته عبارات عن الكبريت .

ـ اسمع الناس يتحدثون عن اذاعة سرية لكنهم ينسبونها الى بلغاريا .

وقالت خديجة : انقل الراديو إلى هنا ، فالدنيا شر ، لكن يبدو أن الشيوعيين لن يتوبوا .

قال سلمان : الشيوعيون لن يصلوا إلى الحكم .

هبطت خرزة رقبته خلف اللقمة . تناول قدح الماء ، ثم واصل :

ـ أنا أصلي وهم لا يصلون ، لكني حين أقارن : أقول على أية حال هم أفضل من الامريكان .

قال ماجد قبل أن تدس والدته اللقمة في فمه :

ـ بابا ، كريم أدار الراديو على محطات كالضفادع .

توقفت يدها عند شفتيه لتطلق ضحكة ، وترتد إلى الخلف. دست اللقمة في فمه ، قال وهو يلوك :

ـ اتشتري لي راديو صغيرا ؟

ابتسم الاب . أشار بالايجاب . قال موجهاً كلامه الى كريم كأن عبارة الصغير منحته فرصة للحديث :

ـ تركت لك ثلاثة دنانير مصروف شهر .

نكس كريم رأسه . قال الصغير يستبق الاحداث :

ـ أنا أريد نقودا .

ـ يومياً لك عشرون فلساً تأخذها من ماما .



Scanned with CamScanner

ـ أنا آخذ أكثر من كريم ؟

وخزته العبارة فتجاهلها بجرعة ماء كأنه يخفي ارتباكه وراء القدح المعدني ، وواصل الصغير حديثه البريء وأسنانه تعض على اللقمة :

ـ عندما أكبر آخذ نقوداكثيرة أشتري سيارة وبيتا وأتزوج .

ضحك الثلاثة عالياً . احتفظ سلمان العلي برزانته كعادته عند أي مشهد يثير السخرية . قال يصرف الكلام إلى كريم :

ـ همي أن تكمل الثانوية ، وتنجو من جحيم الجندية ، تدخل الجامعة او تحصل على عمل أو تسافر . لا نقف في طريقك ولا نحاسبك .

عرف أن كلام سلمان العلي مقدمة ربما يلوح فيها لامر ، وكثيرا ما أثار التلويح في أعماقه ألماً . ها هم يرون الرحلة الدراسية تكاملا لشخصية الفرد ، وبينه والصيف حين يجتاز الامتحان عدة أشهر لا تكفي برأيه أن تكون فاصلا بين الحرية والسجن . قال :

ـ هدفي النتيجة .

أثاره أن أخته لم تتكلم . قال سلمان العلي :

ـ أأنت ضجر منا ؟

تطلع إلى عيني أخته . أكد سلمان :

ـ أضايقك شيء ؟

توقفت يده عن لصق البصل بالخبز قال :

ـ أسمعت عني أمرا ما ؟



Scanned with CamScanner

أخبرتني أختك أنك ستبيت عند سلوى كل ليلة خميس . لقد استغربت للخبر . قلت لعل شيئاً ما يضايقك .

تململت أخته . قالت :

ـ سلوى لا تعرف الطبخ . ستتعشى معهما السندويش ، وتفطر الجبن والشاي ، أقسم حين رجع كانت عيناه منتفختين، ووجهه أصفر .

قال الصغير : وقد ضربوني ، ونمت جائعاً . ماما سلوى ليس لديها أطفال يحمونني مثل ماما ليلى .

قالت خديجة مستهزئة :

ـ هذا الخبز من العجين نفسه .

قال سلمان مؤكدا بلغة رزنة : صلة الرحم واجبة .

قالت خديجة كأنها تحاول أن تتخلص من مسؤولية : بودي لو يزور أختيه شرط أن تكون بيوت أقاربنا مثل بيتنا .

بدأت تتكلم ولم تنس أن تدس اللقمة في فم ابنها بين فترة وأخرى . كادت تنسى نفسها . ليلى وسلوى خرجتا عن خطة الراحلة . السبب أنهما انفتحتا على عالم الجيران . الفوضى شاعت في البيتين . الاثنتان تعلمتا الجلوس عند عتبة الباب في حلقات . الناس خراب الناس . علينا أن نتعامل مع الجيران بحدود ضيقة . أما هي فصورة المرحومة . تلك اللحظة تتذكر كلمات أمها القاسية بحق سلوى التي لم تجد فن الطبخ . كانت تفدي الاثنتين لخديجة ، وتفخر بها أمام خالاتها .

قاربت المائدة على الانتهاء . أراد أن يعرف رد فعل



Scanned with CamScanner

خديجة بالذات • قال :

ـ ما رأيكم أني أتعلم السياقة ؟

قالت : قد تطلب المكاتب أجورا عالية •

صمت سلمان • رأى كريم ماجد ينظر اليه بأسفل عينيه •

ـ لدى صالح سيارة •

قال الصغير : ركبت معك في الطائرة ، وسأركب في السيارة!

قال سلمان مداعباً : **أبقي شيء لم تتعلمه ؟**

ـ السباحة !!

قالت خديجة بابتسامة :

ـ هذه لا • فاته أن يتعلمها في الصغر ، لن تنفعه الآن ، أما ماجد فأيام الله طويلة •

وقال سلمان العلي مغادرا المائدة :

ـ لو تركته يخرج إلى الزقاق لتعلم السباحة في مجرى الماء الآسن !!

## ـ ٦ ـ

خرجت سلوى مع زوجها كعادتها عصر الخميس • واغتنم كريم فرصة خلو الشارع من الاطفال ، فجلس يراقب بيت الهام • مرت لحظات ثقيلة خيمت على صدره كالجبل ••• ثم انفرج الباب •••

أطلت بابتسامتها العريضة • حياها بحركة خاطفة من يده • كور أصابعه الاربعة ، وأفرد ابهامه مشيرا الى الدار ، وعندما هزت رأسها موافقة ، دلف ، وأبقى المصراع شبه منفرج • انتظر



Scanned with CamScanner

في الممر وهو يكاد لا يصدق • دخلت • لفت عباءتها على يدها • قال :

ـ تبدين رائعة في العباءة •

ـ أتقول ذلك جادا ؟

ـ السواد يلائم البياض !

دخلا غرفة الاستقبال • جلست على المقعد المستطيل • ألقت عباءتها في حضنها • قالت :

ـ ألا تتفرغ إلا يوم الخميس ؟

ـ المدرسة تشغلني كثيرا ••• ألستِ في المدرسة ؟

ـ الرابعة الادبي •

تطلع في عينيها ، دارت ارتباكها بالنظر إلى حضنها • قال :

ـ نحن أديبان •

ابتسمت ، واصل كلامه :

ـ لدي روايات نجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وكتب مترجمة في الادب والاقتصاد ، وعلم النفس ، اذا أحببت فأنا على استعداد لاعيرك •

تحاشت النظر في عينيه • قالت :

ـ على فكرة ، هذه المرة الثانية التي أدخل فيها بيت سلوى •

ـ كيف وجدتها ؟

احتقن الدم في وجنتيها ، أحس أنه أحرجها :

ـ عمّ تحدثتما ؟

ـ أختك خياطة ماهرة • سأخيط ملابسي عندها دائماً •



Scanned with CamScanner

ما زالت عيناها تتحاشيان التمعن في عينيه ، وتهربان الى الى الجدران • واصلت كلامها :

ـ لم تكن أم رسول مخطئة •

سمع كريم بهذا الاسم • إنها جارة أخته بابها يقابل منزل سلوى ، أتمت كلامها :

ـ قالت : إن أختك أحسن خياطة •

ـ تعلمي الخياطة ، فالذي يتزوجك في المستقبل لن يخسر •

وسع الخجل ابتسامتها • رمقته بطرف عينيها • اقترب منها • تطلع في وجهها • التصق فخذه الايسر بفخذها • أحاطت يده كتفها • انسابت يده على ساعدها • ضغط كفها الناعم ، فأحس بالدم ينسل من ساقيه •

ازدادت ضربات قلبه •• شبك أصابعها، ثم التصقت الشفاه!!

نسي الزمن ، وهو يلاصق الجسد الغض • أحس ببرودة العباءة في حضنها تفصله عن حرارة جسدها ، فثنى عنقها لتهوي ببطء على المقعد المستطيل ، لكنها انتفضت بين يديه • استعادت وعيها • قالت :

ـ أرجوك ، هذا يكفي •••

ـ أنا آسف •

نهضت تفتح طيات عباءتها • قالت :

ـ عليّ أن أخرج •

ـ ما زال هناك وقت •

ـ ربما ترجع أختك !



Scanned with CamScanner

ـ أنلتقي في مكان آخر ؟

ـ قد يراني أحد أقاربي ؟

ارتدت عباءتها ، قالت :

ـ تأكد من خلو الشارع !

فتح مصراع الباب ، كان الزقاق يستقبل آخر خيط لضوء الشمس ، فيأكل الشحوب جدران الدور ... وخرجت تحث خطواتها الى منزلها المقابل لبيت سلوى ،

★ ★ ★

ظهر يوم الجمعة كان في المنزل ، لم يفاجئه حضور أخته ليلى ، فقد اعتادت أن تزور خديجة كل شهر تقريباً ، أثار دهشته وجود ليلى بمفردها ، ساوره هاجس أن انتقاد خديجة للاطفال الطائشين أوحى للوسطى ألا تصحبهم ، قال ماجد :

ـ أين علاء وكريم وندى ؟

نظرت خديجة الى ابنها نظرات ذات معنى ، قالت ليلى :

ـ انهم مشاكسون يتعبونكم ،

لم تعلق خديجة ، كأنها رضيت عن تفسير أختها التي واصلت:

ـ أحضرت سروالا وقميصاً لكريم ،

كان يتضايق اذا جلبت له احدى أخواته ملابس أو أعطته نقودا ، غير أنه لا يبدي أية حركة ، ولا يعلق بشيء ، سوى أن يزدرد ريقه ليتهرب من نظرات الفضل ،

قالت خديجة : خزانته مليئة بالملابس ،

ـ البركة في سلمان فهو كبيرنا ،

أصبح كريم مدار حديث لولبه الاحسان ، فبدا التأثر في



Scanned with CamScanner

قسماته ، خطا الى غرفته ، وجاءه صوت أخته ليلى :

ـ تزور سلوى ولا تذكرنا !

توقف عند العتبة . سبقه ماجد :

ـ صحبني مرة واحدة !

نهرت خديجة ابنها ، قال كريم معتذرا ...

ـ البكالوريا صعبة ، والدروس تتطلب وقتاً .

أكدت خديجة قوله :

ـ ليالي يظل يقرأ إلى الساعة الواحدة !

ـ كيف يزور سلوى اذن ؟

ـ هي وحيدة . هذه الايام كثرت السرقات . لا تستطيع أن تخرج مع زوجها ، وتترك البيت . وجودي لا بد منه أحياناً .

قالت ليلى وابتسامة تعلو شفتيها :

ـ لا تنس أن تزورنا بعد النجاح !

وعقبت خديجة :

ـ ليسكن عندك اذا شاء !

وضعت راحتيها على الارض . استعانت باسم الامام . ألحت خديجة أن تبقى للغداء ، ورؤية سلمان العلي ، لكنها اعتذرت ، فالاولاد يزعجون عمتهم . ان أخته ليلى تحاول أن تجعل زياراتها الى خديجة في المستقبل قصيرة ، وقد تكون شبه رسمية .

## ـ ٧ ـ

ارتدى ملابسه ، وهم بالخروج . كان الجو دافئاً . حذرته أخته أن ينخدع لان شمالة العجوز لم تمر بعد . ان كتفيه عند



Scanned with CamScanner

الغروب يندبان برودة لا تدفؤهما الا السترة .

رسم في ذهنه صورة مبعثرة لدهاليز الحيدرخانة ، وبيوتها القديمة . نسي أن عليه أن يحضر اجتماعاً سياسياً بينه وصالح قبل الذهاب الى الازقة الضيقة . تحسس نصف الدينار ، الورقة الحمراء هي الخيط الذي يربطه بحي قديم ، ستصبح بعد ساعات في خزين الذاكرة ، فتندثر مع غبار الزمن ، وتظل البيوت ثابتة ، ويظل الجامع ووزارة الدفاع في مكانهما ، كأن فتيات الطريق اخترن مكانهن في قلب بغداد ليبقين عند مركز الدائرة لا يخشعن لصوت مؤذن ، ولا يثير غثيانهن اللون الخاكي . أمس قبل فتاة التهبت بين يديه . ما زالت طراوة شفتيها ونفسها الساخن تشد لسانه . اليوم يخالط ريقه مذاق آخر ، فالجسد القابع في العتمة ينتظر آخرين ، هل يحس بعد ذلك بخفة جسمه، وراحة بال قد تستمر اذا طالت يوماً أو بعض يوم ؟

تأكد من نقوده ثانية ، ما كاد يخطو من باب البيت حتى وجد صالحاً أمامه . قال بابتسامة :

ـ فكرت أن أغير مكان اللقاء اليوم .

ـ أهناك محذور ؟

ـ كلا .. أبدا .

جلس الاسمر على المقعد في زاوية تقابل كريم :

ـ اليوم « الفن والادب في ظل الاشتراكية » !

نسي صالح نفسه حين تحدث بانفعال ، وقد خيل الى كريم أن رفيقه يتفنن في السرد ليثبت كفاءاته ، ويبرز قدراته . سمعا



Scanned with CamScanner

طرقاً خفيفاً على الباب ، نهض كريم ، وعاد يحمل صينية الشاي .
عاد صالح إلى القراءة ، متجاهلا قدحه ، أما كريم فقد راح يرتشف الشاي بين فترة وأخرى فيصدر عن احتكاك شفتيه بالهواء صوت خفيف . عادت النقرات ثانية على الباب . استلم اناء مملوءاً بالبرتقال والتفاح :

ـ لست ضيفاً لكنها أوامر أختي .

انفرج الباب بهدوء . أطل ماجد ، ظل يرمق الفاكهة ، قدم له تفاحة . تراجع الصغير الى الخلف . قال :

ـ كله لك .

ضحك صالح . قال ماجد :

ـ ان لم تأكل ما في الصحن كله ، نغلق عليك الدار ، وأكون أنا الحارس .

التفت الى كريم . قال :

ـ المجتمع يربينا منذ الصغر على القسوة .

ـ ألا ترى أننا أعنف الشعوب .

خفض صالح صوته ، غمز جهة الباب ، قال :

ـ يبدو أن داركم لا تصلح للقائنا .

شعر كريم بوخزات ضميره ، ليس من الاخلاق أن يعرض للخطر سلمان العلي ذلك الرجل الذي أحتضنه ، وأنعم عليه بخيره . تطلع إلى وجه صالح يتبين ردود الفعل . خيمت لحظة صمت ، وانشغل الصغير يقرص قماش المقعد . أطال النظر الى كريم ، وقال للاسمر :



Scanned with CamScanner

ـ كل مرة تزورنا أجلب لك شاياً وبرتقالا وتفاحاً .

ـ أنت تريد حبسي .

مرر يده على رأس الصغير ، ثم نهض . قال :

ـ لنجربك ستوصلنا الى الميدان .

اجتازا سيد سلطان علي الى شارع الجمهورية ، كان صالح قد أوقف السيارة عند فسحة جانبية غير بعيدة ، صعد كريم خلف المقود . أحس برهبة يبعثها الضجيج . خيل اليه للوهلة الاولى أنه يروّض أفعى تتوسط حقلا مليئاً بفحيح الثعابين .

قبل الميدان أشار إليه صالح أن ينحرف الى مكان واسع في شارع الجمهورية ، ثم ترجلا قاصدين الازقة القديمة .

كان الشحوب يلف الازقة كأنها تستقي نفسها المتقطع من شمس تحتضر . الابواب نصف مشرعة تبتلع الاشباح وتتقيؤها، فيختفي خلفها من يرغب في الهروب من ضجيج بغداد .

الممرات تنحف في استدراتها كخصر فتاة مسلولة . في مدخل الحارة رجل يشوي الكبدة على الفحم ، في صوته خشونة ، يهتف بالعابرين : لذيذة ومقوية للظهر !!

أطلا من باب مفتوح أحد مصراعيه ، فلوحت لهما امرأة داخل الدار . قال صالح :

ـ في هذا البيت فتيات سمراوات .

ـ أما أنا فكلما ارتفع الثوب ، وسقطت عيناي على بياض ازدت اثارة !

اجتازا الرواق الى مدخل الدار ، كانت الحاجّه كما يطلق



Scanned with CamScanner

عليها العابرون ، تجلس على مقعد خشبي تقشر البصل والثوم . امرأة سمينة في الخمسين من عمرها ترتدي ثوباً ورديا ، وتلف شعرها بشال أبيض . مسحت بظهر كفها دمعة سرحت على خدها . قالت تحرك السكين بالهواء :

ـ نصف دينار !!

قال كريم : أربعمائة فلس .

ـ لن ينقص الثمن فلساً واحدا . ان بناتي أجمل وأنظف .

صمت الاثنان . هوت بالسكين على رأس البصل فقطعته نصفين ، وعقبت :

ـ أهلا ان كنتما ترغبان وإلا اخرجا .

تطلع كل منهما في عيني صاحبه ، هزا رأسيهما موافقين . قالت :

ـ اختارا من الغرفة اثنتين .

دخلا غرفة ضيقة يتراقص خلال ضوئها الشاحب دخان السجائر ، أبصرا أربع فتيات على مقعد قديم ، الاولى في العشرين بيضاء ممتلئة ، عيناها محمرتان ، يبدو أنها كانت تبكي ، الثانية شقراء نحيلة بان عظما فكيها ، أما الثالثة ففي الثلاثين صفراء ، يلوح على محياها لون مغولي ، الرابعة سمراء عيناها تشعان أنانية ، ولعلها أجرأ الفتيات .

لم يكنّ حديثات عهد ، لقد أبصرهن كريم عند تجواله في الحارة ، همّ أن يختار السمراء ليدرك سر نفوره من اللون



Scanned with CamScanner

الاسمر ، لكنه انصرف عنها نزولا عند رغبة صديقه ، صحبته أصغرهنّ سناً إلى غرفة مجاورة • جلست على حافة السرير قال:

ـ كنت تبكين ؟

ـ قذر يدسّ في يد أم جميلة اربعة أضعافكم فلا يختار سواي •

ـ اقبليه مثلما تقبلين الآخرين •

ـ رائحته نتنة تفوق رائحة البالوعة ، فمه يثير الغثيان ، والناس يتهامسون أنه مصاب بالتدرن !

أحس ببرودة تسري في ركبتيه • قال :

ـ ألا تقدرين على طرده ؟

قالت ، وكانت تعلق ثوبها الخفيف على الشماعة :

ـ تهددني بالطرد •

ـ البيوت كثيرة •

اندست جنبه في السرير • قالت :

ـ منذ أن وقع بصره عليّ لا يفضل سواي !

خلع سرواله • أخذ وجهها بين راحتيه • قبل شفتيها • اجتاحت أنفه رائحة التبغ • رفع شفتيه عن شفتيها • حاول أن يقتحم عالم التبغ ليلغي من نفسه الشعور بالتدرن والسجائر والغثيان • انتبهت الى برودته • قالت :

ـ أنت متعب •

ـ ربما من الدروس •

ـ اذا تأخرنا فالحاجة تطرق الباب •



Scanned with CamScanner

عبثت بجسده • اختلطت في أفكاره صور مبعثرة لامرأة تبدأ ممارسة مع رجل • قد تبدأ المرأة لكن النهاية بيد الرجل •• لبس سرواله ، أما هي فأشعلت سيجارة ، وخرجت ، تبعها فوجد صالحاً في الرواق ينتظره •

ـ خيل الي أنك سادي •

ـ ألانني اخترت فتاة تبكي ؟

أطلق كريم ضحكة قصيرة • كان يتذكر أول لقاء له بامرأة • تلك مومس تضحك وتستهزيء ، وتطلق كلمات بذيئة • قال :

ـ كلنا يتذكر بدايات الاشياء •

ـ أليست النهاية بداية يا صديقي ؟

ـ يومذاك كنت في المتوسطة • حدثني صديق عن الحارة • بعت قلماً كان هدية من أحد أقاربي ، منذ ذلك الوقت ارتبط القلم بالمرأة !

ـ بدايتي مشابهة لبدايتك غير أني لم أبع أي شيء •

اقترب كريم من الشارع الفرعي المطل على بيت أخته • قال صالح :

ـ الآن تستحق اجازة قيادة •

حال وصوله ، وجد أخته تباشر باعداد الطعام • استقبله ماجد عند باب المطبخ :

ـ ماذا جلبت لي ؟

تحدث وعيناه الى أخته محاولاأن يتخلص من موضوع حرج:

ـ تناولت عشائي في السوق مع صالح •



Scanned with CamScanner

دنت خديجة منه • قالت بصوت منخفض :

ـ أنقصت نقودك ؟

ـ أبدا •• كفاني نصف الدينار •

ـ انه مصروف خمسة أيام •

عادت الى القدر ثانية • قال ماجد :

ـ لماذا لم تصحباني معكما ؟

زجرته أمـــه :

ـ الدنيا برد ، لِمَ تلحّ هكذا !

ثم وجهت كلامها الى كريم :

ـ حين يزورك أحد أصدقائك أخبرني حتى أعطيك ما يكفيك من نقود •

خطا الى غرفته ، تبعه ماجد ، لكن والدته منعته لينصرف خاله الى قراءته • رد الباب خلفه ، واستلقى على السرير •

كان يشعر بجوع شديد • فلم يجد عذرا يغالط به أخته حول صرف النقود كلها ، فأعاد في ذهنه ، ليهرب من الجوع ، لوحة للزمن الذي قضاه في بيت بالحيدرخانة مع فتاة الحارة •

## ـ ٨ ـ

تناول غداءه على عجل • مرر لسانه على شفتيه ، لامست طراوته شعرات خشنة لم تطلها موسى الحلاقة ، على صامغي شفتيه • ظل طول الطريق يحلم بمشهد جديد يدفن فيه أحاسيسه المضطربة •

لم تكن سلوى وحدها في الدار ، فهناك امرأة عجـوز ،



Scanned with CamScanner

قصيرة ، مال ظهرها الى التحدّب ، واستدق عنقها المجعد كانت تطري على أخته ... أخبرت بيوت الحارة كلها عن فنك .. أنت أمهر خياطات البلد ... وأوقفت سلوى الضغط على دوّاس الماكنة . قالت :

ـ البدلتان ليتيميك خطتهما من القماش الزائد .

لاحت على جبهته علامات الضجر ، أصيب بخيبة عندما التفتت اليه سلوى وقالت ببرود :

ـ لقد خرج حسن !!

اتجه الى الرواق . نظر بطرف عينيه الى أم رسول . تبين نظرتها الحادة وابتسامتها الغامضة . خطا الى الباب . جلس على العتبة يتطلع في الزقاق . ضايقه مجموعة أطفال تحلقت حول « الدعبل » والخذاريف .

تهاوت الى سمعه ضربة قوية ، ومواء حاد لقطة تصطدم بخشبة . التفت ناحية طفل رمى خذروفه على آخر جعله الاطفال هدفاً ، فانقسم نصفين . كاد صبره ينفد ، فالباب مغلق . لعلها مريضة ، وربما تكون في سفر . أيقظه من تأملاته صوت أم رسول وهي تصلي على النبي ، وتدعو لسلوى بالستر . تنحى كريم عن العتبة يوسع للمرأة :

وجاء صوت أخته بخشونة :

ـ هلا دخلت !

خيل اليه انها تكلفه بالخروج لشراء سلعة من السوق القريب . لم يجب منتظرا أن تنهي صمتها . اتكأت بعكسها الايسر على



Scanned with CamScanner

ماكنة الخياطة :

ـ أتعرف من أي لواء هم أهل الهام ؟

فتح فمه غير مصدق • أتكون الهام أخبرت أخته عما حدث • بقي صامتاً • واصلت :

ـ قابلت في داري هذه « الشروگية » ولم تراع حرمة البيت •

ازدرد ريقه • حار في البحث عن كلمات مناسبة • لم تمهله أخته يلتقط أنفاسه :

ـ أم رسول رأتها من النافذة تدخل الدار • هل تغالط ؟ أتعرف ما تعنيه علاقتك بهذه الفتاة ؟ أيعجبك أن تتعامل مع أهل « العمارة » أتفكر بالقتل والعشائر ؟

ـ لكني لم أفعل •

ـ هذا كلام لا أفهمه • أتعرف ما تقوله عني خديجة ؟ ستضع اللوم عليّ • أنت تعرف أختنا • أيعجبك أن تعدّني قوادة ؟

ـ الامر لا يستحق أكثر من ذلك •

ـ أختك منحتك الثقة • أتدخل في بيتها امرأة ؟ أيسرك أن تلطخ سمعة المنزل ؟ !!

التقط بعض أنفاسه • تجرد من الخجل الذي انتابه بداية الحديث :

ـ كنت مخطئاً كان عليّ أن أفكر بالموضوع •

لم يبق للعشاء ، ولم تلح عليه أخته شأنها من قبل • قالت وهي تشيعه الى الباب :



Scanned with CamScanner

ـ لقد استدعيتها . أمرتها أن تتركك وشأنك . نحن في غنى عن المشاكل .

كانت عبارة أخته حافزا لان يعدّ زيارته هذه الاخيرة لها . صمم ألا يلتفت خلفه حين اجتاز المنعطف المفضي الى الشارع العام ، فقد سحبت منه الثقة وتحول في نظرها الى مشكلة تثير العقد .

عندما وصل الى الدار كان يشعر بصداع خفيف . استجاب للذة التفكّر والنوم . ظل يلم شتات الصورة التي جمعته أمس للذة التفكر والنوم . ظل يلم شتات الصورة التي جمعته امس القريب بالهام ، ويفكر في كلام أختـه ، وسـرعان ما اختفت الصور ، فأسبل جفنيه ، وغط في نوم عميق !

استيقظ صباحاً الساعة السابعة والربع . ارتدى ملابسه ، وتناول فطوره مع سلمان العلي . كانت أخته قد استيقظت قبل الاسرة . لم يجرؤ أن ينظر في عيني أي منهما ، فاختصر الطعام على عجل وخرج الى المدرسة .

انه يتذكر جيدا أوّل درس ليوم السبت . دخـل مدرس « التاريخ الاوربي » الطويل القامـة النحيف . عرفـه الطلاب أستاذا يجمع بين القسوة والهزل ، وكثـيرا ما أثارت صلعتـه المستديرة نكاتهم ، أما سرواله البني الذي كاد يبلى فهو علامة تثير دهشة الطلاب . قال يوجه الى كريم سؤالا :

ـ لماذا فكر نابليون بغزو روسيا ؟

ـ الشعور بالعظمة .



Scanned with CamScanner

عدّ الاستاذ جوابه انشاءً ، ولم يثر كريم حفيظة المدرس باصراره على موقفه ! لماذا يسافر الى أوربا • شعور داخلي يعجز الفرد عن ادراكه • الاستاذ شارف الخمسين من غير زواج ، أيحق لانسان أن يسأله ؟

راح المدرس يحلل شخصية نابليون ، وهدفه من غزو روسيا ومصر ، نظر أحد الطلاب الى ساعته ، ونفخ بضجر ، لمحه الاستاذ فتوجه الى المجموع بعبارات حادة •• عليكم أن تقرؤا عطلة ما قبل البكالوريا لا تنفعكم ، وخفت حدته كعادته عند آخر خمس دقائق قبل نهاية الدرس •

قال الطالب الذي اعتاد المزاح : أتسمح أن أسألك سؤالا ؟

وقبل أن يشير اليه الاستاذ بطرح السؤال • قال : لماذا لم تتزوج !!

ابتسم الاستاذ ، اغتنمها الطلاب فرصة للضحك بصوت عال، وقال أحدهم بصوت منخفض خلال الضجيج : أدخله في ثقب الحائط يا أستاذ !!

وبقي السؤال أمام كريم بغير اجابة ، تفكيره بالرجل ، عظمة نابليون ، الاستاذ الاعزب • قد تكون أسئلة تافهة ، وقد تستحق اهتماماً ، لكن ما فائدة أن نبحث لكل نتيجة عن سبب • المهم أن نعرف ، لا يدري لِمَ يفكر بأسباب النتائج حيث يحس بحرج تسببه له احدى أخواته ، أو يشعر بخدش لعواطفه • العقدة تذوب خلال الايام ، فيعود الى طبيعته السابقة •



Scanned with CamScanner

لم تفد نقرات الاستاذ على اللوحة من اسكات الضجيج ، الا عندما أعلن الجرس نهاية الدرس .

— ٩ —

ابتسم الوجه الجديد ، فكشف عن أسنان صفراء ، تفصل فجوة بين ثناياها . كان أشقر اللون ، مسرّح الشعر ، ذا حاجبين خفيفين ، وجبهة واسعة .

شد صباح على يد كريم بقوة ، فانطبع لديه احتمال أن الضيف الجديد يعاني من عقدة . قال صالح :

— وسعنا الحلقة . صباح معنا في المدرسة من الصف الرابع .

قال كريم : هل أحرزت الثقة ؟

قال صباح يؤكد كلام صالح ، وربما يلمز الى قدمه : فترة الاختبار لا بد منها لانها تكشف النوع لا الكم .

— الآن نكتب ورقة تطلب فيها انضمامك الى التنظيم !!

أملى صالح على كريم عبارات جديدة ، وذيلها بتوقيع ، وقبل أن ينصرف الى داخل البيت ، وجه اشارة الى صباح ، ورد الباب خلفه . قال صباح :

— كنت في مؤسسة مهنية .

قطع كلامه . أخرج علبة السجائر ، قدم لكريم حيث اعتذر . أشعل سيجارة . سحب نفساً طويلا ، نفث الدخان ، وواصل :

— الآن يحق لك الانتخاب والترشيح ، ستمنح هوية تعد بطاقة تعريف .

أوحت اليه كلمات رفيقه بالعوالم التي يتطلع اليها في الخارج ،



Scanned with CamScanner

غير أنه لا يرتاح الى أسلوبه في اخراج الكلمات وتفخيمها ، وكأنه يحاول أن يظهر أكبر من عمره بسنوات :

ـ سمعت من صالح أنك ترغب في السفر الى الخارج • هل حددت دولة معينة !!

اعتقد أن صباح أساء التعبير ، فهو يؤمن بعظمة الخارج رأسمالياً أو اشتراكياً • قال :

ـ سأحدد بعد النجاح !

ـ بالنسبة لي أفضل مجتمعنا على مجتمعات الدول الرأسمالية •

ضحك في سره من رفيقه الجديد • انه يلوذ بالصمت تجاه أي موقف يخالف أفكاره • انفرج الباب الداخلي • قدم صالح يحمل صينية الشاي • قال :

ـ أسمعتم أخبار الثانية ظهرا ؟

رشف كريم جرعة من قدحه ، ثم سأل بدهشة :

ـ أهناك جديد ؟

ـ وفد صناعي عراقي يزور أمريكا والعلاقات بين ايران والعراق في تحسن •

قال كريم محاولا أن يفرض شخصيته :

ـ الخبران يحملان أبعادا ستظهر نتائجهما •

تجاهل صالح كلامه • قال : نبدأ موضوع اللقاء •

شعر كريم أن صالح ينبهه من طرف خفي الى قدم صباح الذي فتح كتاباً رديء الطبع، وراح يقرأ سلبيات التنظيم السابقة•

اعتراف صريح بالخطأ • التحليل نفسه سمعه من الناس في الشارع • والعبارات ذاتها تحدث بها زوج أخته في جلسات العشاء ، لكن أنبقى نعترف بالخطأ ، ونتجاهل الصواب ؟

أنهى صباح قراءة الموضوع ولم يعلق صالح • توجه الى كريم :

ـ لم نسمع أي تعليق ؟

تضايق من صيغة سؤال تشعره كأنه طالب أمام أستاذ • قال :

ـ من الممكن تفادي السلبيات في المستقبل •

في ذهنه سؤال عن التبعية ، كاد يطرق موضوعاً يثير النفور ، ليخل الشيوعون العراقيون قليلا عن موسكو ، لكنه أعرض عن السؤال لكونه يثير حنقاً وغيظاً عليه من رفيقيه ، وعند نهاية الاجتماع طلب صالح من كريم أن يخرج قبلهما ، لكيلا يثيروا الشك بانصرافهم مجتمعين •

لم يبد البيت هادئاً في نظره • قابلته أخته بوجه متجهم • تصور في البدء أن شجارا احتد بينها وبين سلمان العلي ، وهو أمر نادر الحدوث ، دخل غرفته فتبعه الصغير ، التفت اليه وهو يخلع ملابسه ، قال ببراءة :

ـ جاءت ماما سلوى فتحدثت طويلا •••

تعرّقت جبهته ، حاول أن يستفهم من الطفل ، لكن صوت أخته ارتفع من داخل المطبخ ، كان شعر رأسه يلصق على جبهته من التعرق • قالت خديجة :



Scanned with CamScanner

ـ هذه نتيجة تربيتنا فيك ؟ تعلمت الكذب ؟ كنت تقول لسلوى دعتني لزيارتها • أختك خديجة رجل • لستُ امرأة حتى تضحك عليّ •

وقف خجلا أمام هجومها المفاجيء • قال كمتهم حاصره دفاع متمكن :

ـ جاءت لاشرح لها درساً هل أطردها ؟

ـ من يدري ، لعلك اختلقت قصة عشاء صالح ، واشتريت لها هدية بنصف الدينار •

أفرزت لوزتاه لعاباً • ازدرد ريقه ، ثم غالب دمعة كادت تسقط من عينيه • شعر تلك اللحظة أن الانسان ضيف ما لم يكن في بيت والديه • هم أن يصرخ في وجه اخته • كظم غيظه ، ما عسى أن يقول، وقد صرف المبلغ في عمل أسوأ مما تعتقد خديجة• قال بيأس :

ـ اسألي صالح •

تجاهلت عبارته • قالت محتدة : كنت معجباً بطولها حين ضربوا ماجد •

انصرف الصغير عن لعبته حين سمع أمه قال : انها حلوة • أخذتني بين يديها وقبلتني ، لكنهم سرقوا درهمي !

ارتاح قليلا اذ رأى حدة أخته تخف ، لم يسأل بأي اسلوب تحدثت مع سلوى ، فقد عادت الى هدوئها• انها تقابل أي موقف بعاصفة ، تملك زمام المبادرة ، وبعد فترة تهدأ • دخل غرفته •



Scanned with CamScanner

جلس يفكر . اقتحم ماجد الغرفة يحمل لعبته . قفز الى سريره . قال بصوت منخفض :

ـ سلوى أخبرت ماما عنك . أنا أحب خالتي ليلى فهي لا تذكرك بسوء .

ـ سلوى تحبك كثيرا .

ـ لكنها لا تحب تلك التي قبلتني .

ضجر من الصغير، راح يبحث في أوراقه دونما رغبة ليتجاهل أسئلته المحرجة ، ثم ترك دفاتره المدرسية ، وأخذ الصغير في حضنه .



Scanned with CamScanner

# القسم الثـــاني



Scanned with CamScanner

خرجت خديجة عصراً ومعها ماجد لتراهما الطبيبة بأجرة فحص واحد ، أما سلمان العلي فغادر كعادته الى المقهى ، ثم الجامع وبقي كريم وحده في المنزل ، وحين أعلنت الساعة السادسة أغلق باب غرفة الاستقبال ، وأدار المذياع على موجة قصيرة ...

كان المذيع يتحدث عن النفط والكبريت ونضال اليسار العراقي . علا صوته بأسلوب عاطفي مباشر ، ثم ربط بين محاولة الحكومة منح استثمار الكبريت لشركة امريكية ، والعلاقة الايرانية العراقية .

وبعد أن توقفت الاذاعة ، أحضر ورقة ، وشرع في الكتابة ليكون التعليق موضوعاً يطرحه في اجتماع مقبل .

لم يكد ينهي تعليقه حتى صوّت قفل الباب . دخلت أخته تحمل كيس الادوية يسبقها ماجد بيده عربة مطاط . استقبل أخته باهتمام يوازي اهتمامها ساعة يعود من مراجعة طبيب .

قالت :

ـ علامات حمل .

ضحك ، وهو يربت على كتف ماجد :

ـ بعد تسعة أشهر يصبح عندك أخ .

ـ سأطلب من بابا مصروفاً أجمعه له .

تصفح كريم علبة الدواء . قالت أخته :

ـ هذا لماجد ، من أين يأتي الرمل ؟ أهناك عائلة تعتني بنظافة الطعام مثلنا !



Scanned with CamScanner

ـ ان كان الدواء مرا فلن أشربه .

أخيرا رضخ الطفل لقساوة أمه ، ومعارضة كريم ، رفع الكأس ، عبّه ، وهو مغمض العينين . سحب بعدها نفساً طويلا . قال كريم :

ـ ما رأيك لو أن ليلى وسلوى تأتيان لمساعدتك ؟

قطبت خديجة ما بين حاجبيها ، قالت تجيب عن سؤاله بنفور :

ـ دعنا نبعد عن المشاكل .

والحقيقة أن كريماً نفسه لا يقر بعض الظواهر ، سواء في بيت ليلى أو سلوى . لولا أن خديجة تضخم بعض ما تراه ، فتمنحه بعدا أكبر من حجمه .

شمرت أخته عن ساعديها ، ودلفت الى المطبخ . قالت دون أن توجه الكلام الى أحد :

ـ اتركوني وحدي ، متى ما قصرت في حقكم افعلوا ما تشاؤون .

آلمته كلمات أخته . كان منبع التأثر اشفاقاً على خديجة ، فهي لا تجد لذة تضاهي خدمة البيت ، ولا شعورا بالراحة الا في المطبخ . برأيها أن ربات البيوت ناقصات لا يصلن الى مستوى كمالها ، هذا التفاني والشعور بالكمال حدا بها الى التنازل عن كثير من ظواهر الراحة والتمتع بما يقره الآخرون ، وها هو يذكر أن أخته لم تخرج من البيت الا اليوم عدا اطلالتها الصباحية في السوق ، فان كان يوم الجمعة انشغلت صباحاً بغسل أرضية

البيت ، وطلبت من زوجها أن يقصد السوق ليشتري اللحم والخضار .

بعد العشاء جلست العائلة تتلذذ بشرب الشاي . راقب ماجد قدحه الصغير ، وقطرة الشاي تطفو على الماء فيشكل اللون الوردي حزاماً من أعلى . قال سلمان العلي :

ـ حدثتكم عن الحاج الاعمى .

قالت خديجة وابتسامة عريضة تعلو شفتيها :

ـ ان معارفك كثيرون .

ربما سمع كريم باسم الحاج من زوج أخته قبل فترة . لكن لم يكن ليعيره اهتماماً ، فهو صديق سلمان العلي ، كريم ينظر اليه صديق مصلحة ، فهو رجل أعمى ثري يملك عقارات ، وبيوتاً مؤجرّة . رجل بهذه المواصفات ليس في غنى عن سلمان العلي ، لانه يقصد سنوياً دائرة الضرائب ، وحيث أن الضريبة تصب في خزانة الدولة ، فسلمان العلي يتسامح مع الناس ، ويحاول أن يقلل من الرسوم ، ويرى في ذلك أجرا دون أن يفكر في شيء غير رضا الله عليه ، حتى أنه يرفض قبول أية هدية من أصحاب الاملاك والعقارات .

صلت الاخت على النبي ، وقالت :

ـ أنسيت الصلاة يا كريم ؟

تنبه الى ماض كاد ينمحي من مخيلته ، ساورته لحظة غريبة لمجهول يقبض صدره . تذكر صلاة امه ، وهو يغتنم فرصة



Scanned with CamScanner

ليركب على ظهرها عندما تسجد ، لكن زمناً طويلا حال بينه وساعات روحية .

قال سلمان العلي :

ـ صلاة الجماعة تتبع حركة الامام .

كان سلمان العلي يعيد ما سمعه من الناس عن الرجل الاعمى أيام الشباب . لقد عرف اللهو والبذخ ، وارتاد كثيرا من دور الملاهي ، وأنفق بلا مبالاة . مما بقي في الذاكرة أنه ضرب رهناً على غلي ابريق الشاي بعملات ورقية ، هكذا يقولون ، وفي ليلة انقطاع التيار الكهربائي أشعل الدنانير ليضيء لراقصة الملهى . ان الناس يفسرون عمى الرجل عقاباً من الله على عبثه في شبابه ، لكنه أصبح الآن رجلا متديناً يلازم الجوامع والحسينيات ويذكر الله كثيرا .

تجلت لكريم بعض معالم شخصية الاعمى . قال :

ـ هل تقبلون مني ثلث الراتب .

ـ نحن لا نطلب شيئاً . الجزاء على الله .

وقالت خديجة :

ـ غدا بعد عودتك من دائرة التجنيد . ادخل الحمام . سروالك البني مكوي . أريدك أن تذهب الى الجامع بطلعة مهيبة .

نهض الى غرفته فكر في تضارب موعده الجديد وموعد الحلقة . قرر أن يصارح صالحاً بالامر . سيجيبه ببرود معتاد : الموعد مقدس ، ومصلحة المجموع أهم من مصلحة الفرد .



Scanned with CamScanner

كانت بناية المدرسة فارغة الا من المدير والكاتب ، وجد أن تعامل المدير ونظراته اليه لم يعودا كالسابق • الآن ينظر اليه نظرة انسان متكامل • الاحساس نفسه راوده في بيت أخته • خيل اليه أن الشهادة التي يحملها هي الانسان النابض بالحياة المعبر عنه ، ومن دونها يبقى ناقصاً !!

ألقى على المدرسة نظرة أخيرة ، كأنه يدفن بين جدرانها ذكريات سنين امتزجت بحواسه ، وفصلت عنها ورقة الشهادة • زوج أخته يسميها ورقة الانقاذ التي أعفته من لعنة العريف •

سابقت ساقاه الرصيف • استدارت عيناه بين المشاهد ، رأى خلال عبوره الطريق جنودا يجرون أرجلهم متثاقلين ، ها هو الحلم يتحقق ، وزغردت الجارة الطيبة تعلن عن فرحتها :

ـ تخلص اليتيم من الجندية •

ترقرقت دمعة ساخنة في عيني أخته ، وتشبث به ماجد الصغير ، وهو يقبله :

ـ لن تأخذك الحكومة مع الجنود !

ارتفعت أصوات بعض النساء بالبكاء • أولادهن يساقون الى ثكنات مجهولة ، وزغردت أمهات يغالبن الدموع ، أما أخته ، فقد بقيت في الدار ولم تخرج لتودعه • كان عند حسن الظن ، وخمنت خديجة أنه لن يعيش في جو العسكر الخانق أكثر من أسبوع ، هذا المدلل الذي تربى على نظافة الطعام والملبس ، سيرتدي السروال الخشن ، اذا رسب لا قدر الله ، ويأكل مع أيد تتسابق في قصعة واحدة ، وينام على الارض • العريف لا



Scanned with CamScanner

يعرف الا لغة الشتائم والسباب والضرب • سيُسَب أبوه ، وتُشتم أمه ، وتلعن الساعة التي ولد فيها •

وقف أمام الباب • أشار اليه جندي أن يدخل • كان الضابط يجلس خلف منضدة حديد امتدت فوقها رزم أوراق وملفات ، ثم دخل غرفة أخرى ، وخرج منها الى غرفة الضابط مرة ثانية • حدق في دفتر الخدمة من غير أن ينبس ، ومشى مخلفاً وراءه ذكرى المدرسة ، ولعنة العريف التي لم تطل والديه في قبريهما •

عند الرجوع، وقد أشرفت الساعة على الثانية عشرة، انعطف الى دار صالح ليعتذر • لم يخطيء خياله • كان رفيقه يتحدث بمبالغة عن أمور تافهة • الموعد مقدس في نضالنا قبل أن نصل الى الحكم • عيب أن أقول : أني رسبت العام الماضي من أجل اجتماع • عليك أن تقدم لي اعتذارا في الاجتماع المقبل •

وقفز بهدوء من دكة الباب الى الزقاق ، وقبل نصف ساعة من موعد الآذان كانا هو وسلمان العلي في الجامع :

بدأ الناس يتقاطرون تباعاً • اختلط أصحاب العمائم بمرتدي السراويل والكوفيات • بادر بعضهم الى النوافل • نهض زوج أخته الى حنفيات الماء • تبعه بتثاقل • قابلته دكة غسل الموتى كالمعتاد في أي جامع • باب الدكة منفرج كأنه وحش يلتهم الضوء من الخارج ، فيختلط النور الخافت في الداخل بأشباح المتوضئين • زاغت نظرته عن المغسل • ثبت عينيه على حركات سلمان • قلده في صب الماء ، ثم رجعا الى مكانهما •••



Scanned with CamScanner

تبين خلال الوجوه رجلا في الثلاثين ، يعتمّ بعمامة بيضاء ، وهمس سلمان العلي في أذنه :

ـ امام الجامع ، شاب يحمل البكلوريوس مثقف .

أوحى شكل الامام لكريم بهدوء رجل الدن الحقيقي جنب صورة مشوهة حملها في فكره عن رجال الدين .

راح يتذكر في ركوعه وسجوده بعض ما نسيه أو كاد ، كأن شرارة انتعشت في الرماد ، خيل اليه أن ثقلا أزيـح عن صدره حين أنهى الصلاة ، وما هي الا لحظات حتى قل الحاضرون ، وبقي في المسجد الامام والاعمى ، ورجلان ، أحدهما طويـل القامة ضعيف البنيـة يرتدي السروال والقميص ، أما الثـاني فمعتدل القامـة يميل الى البدانـة يرتدي الكوفية والعقال .

كان الامام منصرفاً الى مسألة يبدو أن أحد المصلين شغله بها . واجه كريم السمين جابر في المجلس ، اعتقد أنه يهم بالكلام غير أن الاخير حرك شفتيه يتمتم ، وقال الاعمى :

ـ لا بأس بذلك . ان تزكية سلمان العلي فوق كل اعتبار . تستطيع أن تعد نفسك من الآن كاتباً عندي .

أشاع انضمام الامام الى المجموعة الراحة في نفس كريم . اصطبغ الحديث بجدية أوسع من قبل . قال الاعمى :

ـ لولا الحاج عمران لما استطعت مغادرة البيت .

قال سلمان العلي : كريم يدك اليمنى ، وتستفيد منه في أمور أخرى فهو خرّيج !

قال الامام : سمعت أن الاستاذ انهى الثانوية .



Scanned with CamScanner

قال سلمان : فضل أن يشتغل بوظيفة حرة • لقد حققنا أمل المرحومة والدته ، والآن وضعنا حبله على غاربه !

الى هذه اللحظة لم يتخلص كريم من منّة الآخرين ، فما زال محور الحديث يدور حول خديجة وسلمان ، وتهيئة جو البيت بما يناسب شاباً يتيم الابوين •

قال الامام : انه الآن يعتمد على نفسه •

كبرت صورة الامام في خيال كريم • كانت كلماته تنطلق من مستوى ثقافي • واصل الشيخ حديثه :

ـ لتكمل دراستك • انظر الي • أنا متزوج وأب ، أكملت الثانوية ثم كلية اصول الدين !

تجاهل تلك اللحظة الزقاق وصالحاً والاذاعة السرية ، وكل ما يثيره الالتزام في نفسه من خوف • شدته هيبة المسجد ، وهدوء الامام الى راحة يستلذ لها •

قال الاعمى مجاملا : مولانا نحن نقتدي بكم •

واتفق الاعمى مع كريم أن يباشر عمله منذ الغد ، ثم نهض الجميع ، وخلا المسجد الا من خادمه العجوز الذي أغلق الباب خلفهم •

## - ٢ -

توزعت بيوت الاعمى في مجموعتين ، بعضها قديم يقع في حي « الجعيفر » قريباً من بيت أخته ثم اتجه هو وعمران الى منطقة الكرادة • أراه ثلاثة بيوت حديثة ، وأوقف السيارة أمام بيت ذي حديقة صغيرة • قال عمران :



Scanned with CamScanner

ـ هذه المنطقة يسكنها أناس مثقفون ، ليسوا كعامة الناس. انهم لا يؤخرون الايجار يوماً واحدا .

وضع يده على كتف كريم ، وواصل :

ـ هذا أنت عرفت كل بيوت الحاج ، بعد أيام سيوقع لك وكالة تخص عقاراته وايجاره .

اجتازا جسر الجمهورية ، توجها الى التحرير ، وترجل في شارع شعبي قرب سينما « الحمراء » . قاده عمران الى مطعم شعبي ، فلفحت أنفه رائحة الشواء والطبخ ، واجتاحت أذنيه أصوات أصحاب المسجلات ومطربي الريف ، والمنادين على ( المزاد ) ، فكل واحد منهم انفرد بحلقة من الناس .

خفّ صبي المطعم الى الترحاب بهما . ركز كريم نظراته على جدران المطعم . أبصر على الحائط اجازة رسمية باسم الحاج جابر ، وقطعة خشبية خُطّ عليها « مطعم الصادق » ، ثم صحبه عمران الى محل لبيع الملابس القديمة ، علق بعضها في مدخل الدكان ، وصف قسم منها على رفوف في الداخل ، بينما راح صبي المحل ينفض التراب عن الملابس بمنشّة ريش طويلة .

قال عمران : سأختار لك أفضل نوع ان رغبت في سروال أو سترة .

أخفى نفورا اجتاح مشاعره . انه في سنوات اليتم لم يسمع من أحد عرضاً باطعامه وكسائه . الآن يعمل براتب محترم ، ويرى ملابس قديمة تقدّم له بالمجان ، حمد خديجة حيث حفظته



Scanned with CamScanner

طول هذه الفترة لكنه لامها اذ حرمته من لذة المعاناة واكتشاف الاسرار .

وخرجا مخترقين مجموعات المزايدين . كان الحاج ينتظرهما . يبدو أن جابر اتخذ مكانه جنب المنضدة ، وتحدث الاعمى ، ثم وضع السماعة ، والتفت ناحية كريم :

ـ غدا تكون الاجازة بجيبك .

رحل نهار آخر . لم يقضوا وقتاً طويلا في اناطة الوكالة بكريم سوى دقائق الطبع ، وتوقيع الحاج ، وشهادة جابر وعمران . لم تقف مجموعة الحاج في طابور مزدحم مثلما احتشد الآخرون .

قال الاعمى : سأحضر يوم الخميس فقط ، معنى هذا أنك تأتي لتصحبني ظهراً بالسيارة الى الجامع ، وقبل المغرب نذهب ثانية لنصلي المغرب والعشاء .

أخيراً هز كريم رأسه ، وتذكر أن الرجل أعمى لا يرى حركته ، وعرف أن السيارة ستكون معه طول اليوم .

## ـ ٣ ـ

كانت أفكاره مضطربة . تيقن أن صالحاً والاشقر يطبقان عليه ليعترف بخطئه . تجمع اللعاب في فمه ، وأفرزت لوزتاه سائلا حامضاً . قال :

ـ لم أعرف الظروف التي تحيط ببيت الحاج غير المؤجر .

ـ يظننا من يرانا مؤجرين جدداً .

وقال الاشقر :



Scanned with CamScanner

ـ السلطة لا تجرؤ الآن على مهاجمة المتدينين لارتباطهم بالجامع والحسينية ، تستطيع ان تراقبهم فتعرف كيف نستفيد منهم .

لم ترقه الفكرة ، فالتفكير بالتجسس يثير في نفسه النفور والكراهية ، وكلمة المراقبة تعني في اصطلاحه الامن والتعذيب والحقد على الآخرين .

لا يدري أيتعمد صالح طعنه هو والاشقر ، أم يحاولان أن يظهرا تفوقهما في مواقف سياسية ، لو رغب في الفخر لتباهى بشهادته . تحول هاجسه الى ألم مبعثه منظر رفيقه ، وقد خسر سنة دراسية .

وأنصت كريم الى مقرر جلستهم بغير رغبة ، فقد ظلت الكلمات تعيد نفسها . القوى المضادة ، الرجعية التقليدية ، الصراع ، الايديولوجية ....

قد يغضب في داخله من أسئلة تبدو مفتعلة ، فيجيب بابتسامة مصطنعة دونما حماسة . مر وقت ، وانتهى اللقاء ، سبق الجميع الى الباب وخرج قبلهم ...

## ـ ٤ ـ

لحظ عند تناوله طعام الفطور انتفاخ بطن أخته . انتبه الى تغيير في ملامحها ، وشخصت أمام عينيه الشهادة المدرسية . لم تعد أخته تسأله عن جهة خروجه ، هو الآن رجل ، وقد أدت أمانة الراحلة ، وارتاحت اذ نفضت عن كاهلها ثقلا كبيراً ، فهل



Scanned with CamScanner

تجاهلته أخته وكان من أمانيها أن تعدّه رجلا بعد أن تخلص من شر الجندية ؟

ـ ماما متى يأتي الطفل الصغير ؟

قفز الى كرة مطاط ، ركلها برجله • قال :

ـ كم يوما يخرج من بطنك ؟

وقال كريم : لن يتأخر !

ـ من أين يخرج ؟ العيون أم الفم ؟

زجرته والدته ، والتفتت الى كريم :

ـ خذ حذرك من ازدحام السيارات •

توجه الى شارع المغرب حيث يقيم الحاج في بيت تحيطه حديقة تكاثفت فيها أشجار الزيتون • تذكر أنه ليس كاتباً بل سائق ، لكن ما يخفف عنه ، مبلغ شهري تعجز الدولة عن دفعه له •

كانت الساعة المعلقة على الحائط تعلن التاسعة صباحاً • اعتاد عمران وجابر أن يزورا الاعمى في المكتب بعض ساعات النهار ، فيدور بين الثلاثة حديث شامل واسع لا يغفل أية زاوية • اجتازت الشارع الى الرصيف الآخر امرأة ضخمة تكشف عن ساقيها ، فكان مرورها بادرة للدخول في حديث •

ـ تقدمية الصدر رجعية الخلف !

رفع الاعمى رأسه عن الارض كأنه اكتشف محور الحديث • قال عمران :

ـ لا ينفع معها الا طريقة آدم وحواء في اللقاء الاول •



Scanned with CamScanner

اتفق الثلاثة على أن العابرة « بقرة » ، وكان عمران يردد حكاية قديمة دون تحرّج ، ودخل صبي المقهى المجاور ، فوزع الشاي على الجالسين ، اقتفى أثره رجل يتوكأ على عصاه ، يأخذ بيده صبي صغير .

قال جابر : آدم وحواء شاهِدا الحديث .

عاد عمران الى فكرته التي لم يصرفه عنها دخول الصبي :

ـ حين التقى آدم وحواء بعد التيه على جبل عرفات تعانقا ، وظلت حواء تطلب المزيد حتى أرسل الله ملكاً ضربها بجناحه فبردت .

وخلال أيام قليلة تبين كريم مجرى أحاديثهم ، فهي تبدأ بالجنس ، وتمر بالسياسة ثم تنتهي بالدين . حديثهم عن الجنس اجترار لماض تجاوزوه ولا يملكون الا احتجاز بقاياه ، وكانت العبارات تنتقل من المرأة الى الانكليز ، ورخص الاسعار في العهد الملكي ، وما قبل الحرب الى الغلاء اليوم .

وحصر تصوره عن القصة . لقد سمع حكاية آدم وحواء ، لكن متى وأين ؟ كان عمران ما زال يتحدث :

ـ لم يعرفا طريقتنا المعتادة ، فكان صدر آدم يلاصق ظهر حواء كالحيوانين ...

ولم يجذب الماضي عمران وحده ، لقد كان جابر يشتغل في الحرب العالمية الثانية بمعسكر الشعيبة وحكايته مشهورة ...

كان لاحد الخبراء الانكليز زوجة جميلة ، يبدو أن الطريقة الاوربية أن يلصق الرجل صدره بظهر المرأة ، وفي أحد الايام



Scanned with CamScanner

وقع بنفس زوجة الخبير عراقي يدعى : جابر .

المهم أن الخبير عرف الفاعل فطرده .....

انضم الحاج في الحديث عن الانكليز الى صاحبيه . كان الثلاثة يؤيدون الالمان بغضاً بالانكليز . انهم يرون الانكليز كلابا مسعورة ، الحكمة تقول عدو عدوي صديقي ، فاذا مرت قافلة من الجنود فالشباب مفتولو العضلات : جابر ، وعمران ، والحاج يرسمون على الجدران علامة الصليب المعقوف ..

وقال جابر : الله يرحم كريم خلّصنا منهم .

وقال الحاج : آه لو أنه طبق القرآن ، ولم يصدر قانون الاحوال الشخصية .

قال جابر : يا حاج : القانون أصدره الدكتور خروفه .

وقال كريم : لا ينكر أن عبد الكريم تعاطف مع الشيعة ، فقد رأيت له صورة يجثو على ركبتيه أمام السيد محسن الحكيم .

قال الحاج : كنّا على ضلال ، نصفق لاي من يصعد كرسي الحكم ، لولا أن علماء الدين نبهونا على خطئنا .

صمت الثلاثة كأن لحظة خشوع خيمت على المكتب ، وانساق الحاج في حديثه الهادىء البطيء : الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً ، العهد عهد ضلال . الايمان نور في النفس ، ستصفو الامور باذن الله ويخرج المهدي المنتظر حاملا سيف جده ، فيأخذ بالثأر .

حين خرج جابر وعمران تمعن كريم في الاعمى الذي نكس رأسه الى الارض ، واستمر يتمتم بكلمات صوفية . انتظر



Scanned with CamScanner

ليتوقف عن التسبيح ، بلع لعابه عادته حين يكذب :

ـ أحس بألم في حنجرتي ، أعتقد أنها نزلة برد .

دس الحاج يده في جيبه . أخرج محفظة سوداء . عدّ عشرة دنانير :

ـ جزء من راتبك ينفعك عند الطبيب .

شدّ على الاوراق الزرقاء . شعر بارتياح وخدر ، وهو يقلب أول أجر من عرق جبينه ، بدت الاوراق شارة نصر حملها بعد معركة عنيفة ، فانقطعت عندها أنفاسه ، وتخمر في شفتيه عطش شديد .

★ ★ ★

اتخذوا من غرفة البيت الداخلية مقرا للقائهم . فرشوا مناديلهم وتربعوا على الارض . كان محور الاجتماع المظاهرات المحتملة التي ستخرج على السلطة . طلب الاشقر من صالح أن يحدد عمل كل منهم . تحدث الاخير بلغة الاوامر الصادر من المسؤولين . كل شخص يعمل في حارته ، وقد تأتي أوامر قبل ساعات من انطلاق التظاهرة . التعليمات في البدء تدعو الى الصاق منشورات على الحيطان تعبيء الناس ، قبلها يبدأ العضو بمراقبة حارته ليتعرف الاوقات المناسبة وحركة الناس .

قال كريم يحاول أن يجد متنفساً للهرب :

ـ تعرفان ظروف بيتنا .

أجابه صالح : أنت الآن رجل ، ولست ملكاً لاهلك .

وقال الاشقر : هو أول امتحان .

ذاب بعينيه الخارج في أول امتحان . الخطوة نحو الحدود



Scanned with CamScanner

ما زالت بعيدة ، والانتماء الذي جره اليه التعاطف يوقعه في شرك ، وربما يمنعه من السفر ، أو يفقده حياته • الناس حين يتعاطفون مع الشيوعيين يخلقون بذرة في نفوس الشباب ، خديجة المؤمنة لا تعرف حاكماً وطنياً الا الزعيم ، وتتألم لعذاب الشيوعيين حين تتذكر دفاعهم عنه • هكذا تبدو لها الامور • سلمان العلي ينتقم من الدولة بتخفيف حجم الضرائب عن مراجعيه في الدائرة ، ولا يذكر الشيوعيين بسوء • طلاب المدارس يتعاطفون • أهل الجنوب جرفتهم معاناتهم من اضافة « و » بين الشيعة والشيوعية والشعوبية • لقد تضافرت كل الينابيع وألقت مياهها في فم عطشان لترويه وتخنقه •

وها هو يجره تعاطفه الى حد بعيد يبعث الخوف في نفسه • اليوم كله يفكر بالحياة : ماذا تعني ؟ وما هي حدودها ؟ ماذا لو سقط على الارض يتخبط بدمه قبل الصاق المنشور وبعده ؟

انتقل فكره الى مدى أبعد حين فكر بالمنشورات • من أين انبثقت الحياة ؟ هواء ••• ماء ••• ربما •• تراب ؟ وربما نار !!

صالح يقرأ والاشقر يناقش ، وهو يهز رأسه • أجزاؤه مبعثرة تبحث عن الحياة والموت ، ويحدد بصره الصاق منشور •

في الماضي القريب رسمت السياسة مساره في البحث عن الخارج ، ومعرفة أوربا • الآن يجمع أجزاءه المشتتة ، ويتذكر كلمات ماجد المرحة :

ـ خالي أتعرف كيف خرجت ؟



Scanned with CamScanner

حار في الجواب • لو سمعت خديجة عبارته لزجرته • أنقذه ماجد نفسه من اجابة صعبة :

ـ خرجت من عيني جدتي وفمها مبعثر الاجزاء ، ثم جمعت أجزاءك ماما خديجة وركبّتها •

يداه ، كتفاه ، قدماه ، يجمعها ماجد ، ويفرقها الاشقر • عينان في فلك دوار • رموش متباعدة • أقدام معلقة في الشمس، وشعر منسلخ عن الجلد ، فهل تجد هذه القطع من يجمعها ؟

الخوف الحاضر • يرجعه الى الخامس الثانوي • أبصر ثلاث دوائر • وأربع خشبات مرسومة على لوحة جدارية • كان الشكل المبعثر يوحي اليه بهيكل امرأة • دائرة رأس • دائرتان ثديان • خشبتان رجلان • خشبتان يدان ، فما دامت المادة متوفرة فالجمع يسير !

نضح جبينه عرقاً • الخوف أرجعه الى التعاطف ، فارتباطه اندفاع ليس غير • كل ما يقرؤه يؤمن به ، دارون ، فرويد ، اختفاء الفوارق ، لكن الصراع يخيفه •

قال محاولا أن يتغلب على موجة الرعب :

ـ هناك من يندفع فيعلن عن رأيه • رجال الامن يستطيعون رصد هؤلاء بيتاً بيتاً •

كان يعرف أن جملته نشاز أطلقها لملء فراغ يغطي خوفه • قال الاشقر :

ـ ليشعر العدو بثقلنا •

قال يبتلع خوفه : ماذا لو داهم أحدنا حارس ليلي •

م ـ ٧



Scanned with CamScanner

وقال صالح : اضربه وانهزم .

ظل صالح يتحدث بلغة الواثق من نفسه . ان الحكومة ضعيفة ، وشخصية الرئيس مهزوزة ، لا تلجأ الى العنف مع الاحزاب التقدمية . دولتنا تقتفي خطوات مصر في سياستها . عبد الناصر حسن علاقاته بالمنظومة الاشتراكية ، فخففت حكومة بغداد من ضغطها على الاحزاب . قبل أسبوعين ألقي القبض على مجموعة يسارية ، وأفرج عنها بعد ساعات .

طمأنت كريماً كلمات رفيقيه ، فقد وجد جانباً من السلطة يدفن فيه خوفه، وكان الاشقر يشرح طريقة الصاق المنشورات..

ساورته انفعالات مختلفة . ان كابوساً ينيخ لفترة على صدره . غارت قطع الآجر اللماعة التي تزين أرضية الغرفة بالسراب ، وتجسد الحشر أمامه بشكل صراط تحت قدميه حدثته عنه العجائز . أرفع من شعرة ، يعلو جهنم ، فسعيد من يعبره !

وخرج الاشقر قبلهما . قال صالح يطمأنه :

ـ العمل الاول يزرع هيبة في النفس ، ثم تستسيغه كجرعة ماء .

تجاوز عن الحديث قال : سأسهر هنا . أعندك فراش سهل الحمل ؟

ـ ستقول لاختك أنك مدعو مع أصدقاء في عرس ، وستقضي هنا ليلة لا تنسى ، أيكون عذرك نفس عذري ؟

تضايق من العرض ، رغب أن يقضي ليلة مع امرأة وحده ،



Scanned with CamScanner

تردد بالافصاح عن رفضه ، فليس من اللائق أن يطرد صديقاً من جلسة لهو .

حين اقتربا من جسر الجمهورية ، ودع صالح رفيقه ، أما كريم فقد واصل سيره يعبر الجسر حيث يذهب الى مقهى « الفردوس » فيلتقي بوجوه يبدو عليها اصفرار وتجاعيد ، يقع بصره على وجه مميز ، فيدس في يد الرجل ربع دينار ، ويغيب لفترة ...

★ ★ ★

علمت الحاجة جميلة أن القادم يرغب في امرأة لمبيت ليلة . اهتمت به على طريقتها الخاصة . استدعت طفلة من الداخل ، وقدمت له شاياً بارداً . اسندت ظهرها الضخم ، وغرقت في ضحكة طويلة :

ـ أووه ... تسألني عن حميدة . يبدو أنها تعجبك . اسمع يا ولدي انها تزوجت ، صحيح الرجل متقدم في السن لكنه فحل . لن يجعل رجليها تهبطان على الفراش طول الليل . أليس الذي يجمع رأسين له قصر في الجنة !

ـ قد تكون هناك أزمة سكن !!

قالت الحاجة تسحب نفساً طويلا :

ـ كم أنتم سفهاء يا شباب هذا الجيل .

فتح باب . فخرج رجل كث الشارب . فتل شاربه ، ثم عدل هندامه ، واختفى عن النظر في الدهليز ، وقدمت نحوهما فتاة شقراء ، ضخمة الكتفين ، طويلة ، يميل شعرها الى الاصفرار ، وقفت برهة ، وغادرت باشارة من الحاجة . قالت :



Scanned with CamScanner

ـ أنتما اثنان اذن ؟ السعر خمسة دنانير • عشاؤها على نفقتك ، والشرط الاخير أن تخرج من بيتك قبل الثامنة صباحاً ، اذا وافقت على هذه الشروط ستأتيك الى الميدان بعد دقائق •

وقف خلف المنصة ينتظر • كانت حرارة الجو تنعكس على الصفيح ، فيلفح الوجوه • غابت نظراته في وجوه المنتظرين على الرصيف • تململ في وقفته • أتكون الحاجة قد نقضت كلامها معه ؟ إلا أنه تذكر العرف الشائع عند البغايا ••••

سمع أصوات دراجات نارية • امتدت رقاب المحتشدين إلى شارع الرشيد • اقتربت أصوات الدراجات ، انطلقت خلفها سيارة الرئيس • كان كهلا تجاوز الخمسين ، طويل الوجه ، نحيف البنية ، تميل بشرته الى السمار ، كان يجلس جنب الباب الايمن للسيارة ••••

زغردت احدى النساء العجائز على الرصيف الآخر • استعد الجنود قرب وزارة الدفاع • انعطفت الدراجات الى مبنى الوزارة ، ثم أعقبتها سيارة الرئيس • عاد بعدها الشارع الى هدوئه •

كاد يرجع الى بيت الحاجّه ، لكنه أبصر فتاة الحارة تتهادى بعباءتها جهة المظلة • خف اليها ليتجنب نظرات المنتظرين للباص الحكومي :

ـ تأخرت ؟

لمح الاعناق تتطلع اليه باستغراب • تأكد للواقفين تحت المظلة أنه وقف من أجل امرأة ، ولم يكن ينتظر الحافلة :



Scanned with CamScanner